الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعـــة بـــاجي مختـــار – عنابـــة

BADJI MOKHTAR - ANNABA UNIVERSITY

UNIVERSITÉ BADJI MOKHTAR - ANNABA

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم اللغة العربية وآدابها

السنة: 2022/2021

مطبوعة بيداغوجية في مقياس:

النص النثري القديم (جاهلي، أموي)

مقدمة إلى طلبة السنة الأولى ماستر تخصص أدب عربي قديم

إعداد الأستاذة:

د نجاة عرب الشعبة

جامعة باجي مختار - عنابة

العميد

كلية الآداب واللغات

السنة الجامعية: 2022/2021

بِسم الله الرّحْمن الرّحِيم

والحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد،

تهتم هذه المطبوعة الموجهة إلى طلبة السنة الأولى ماستر تخصص (أدب عربي قديم) بعرض مجموعة من الدروس والمحاضرات الخاصة بمقياس موسوم بـ " **النص النثري القديم** "محدد بفترة زمنية تبدأ من الجاهلي وتنتهي عند العصر الأموي.

والنثر الفني كما نعلم هو أحد أقسام الأدب العربي الذي وردنا عبر أمهات الكتب، ويدل على جانب هام من ثقافة العرب الواسعة وخبرة نادرة ووعي بالغ لكل موقف من مواقف الحياة. بل إنه يعد بمثابة التقرير الذي ينقل الأحداث التاريخية فيؤرخها، بعناية فنية فائقة. واستمر النثر العربي القديم بالتطور عبر العصور المختلفة، إذ كانت مراحل تطور هذه الفنون تختلف فيما بينها، فتوزعت هذه المراحل على عصور مختلفة، فكان للفتوحات الإسلامية الدور البارز في هذا التطور، إذ دخل النثر في طور جديد بعد أن تعرضت الحياة العربية بمختلف مجالاتها إلى انقلاب شامل وتطور بعيد المدى. وكما يرى الدارسون أن هذا التطور قد لامس النثر أكثر من الشعر، لأن الشعر فن تقليدي يترسم فيه الشاعر خطا سابقيه، ويلتزم أصولا محددة، ولذلك يكون أقل حركية من النثر استجابة للتطور .

ومنه، فإننا رأينا أن يحض طالب الماستر في السنة الأولى من مساره الدراسي والتكويني بمحاضرات في النص النثري القديم من العصر الجاهلي إلى غاية العصر الأموي بناء على مؤهلاته ومكتسباته في الأدب العربي القديم ونقده. ولا شك أن هذه المادة التعليمية تتوخى أهدافا عامة تتلخص في تعرف الطالب على تطورات وخصائص النص النثري العربي القديم. وأما الأهداف التعليمية الخاصة أو (المهارات المراد الوصول إليها) : فتتحدد على النحو التالي:

ـ التعرف على خصائص وتطورات الحياة الفكرية العربية القديمة

ـ ملامسة التحولات التي طرأت على النص النثري القديم في سياقاته التاريخية والثقافية

ـ قراءة وتحليل النص النثري العربي القديم

ويجري محتوى مادة النص النثري العربي القديم في المحاور الكبرى التالية:

أ. مصطلح النثر المفهوم والتطور.

ب ـ النثر ومسألة الأسبقية والأفضلية.

ج ـ النثر وإشكالية الأجناس الأدبية.

د ـ أنواع النثر في الأدب العربي القديم

هـ ـ موضوعات النثر وخصائصه.

ولجمع وتحرير مادة المحاضرات، فإننا اعتمدنا جملة كبيرة من مصادر الأدب العربي القديم ومراجعه التي كانت عونا لنا في انجاز هذه المحاضرات وتقسيم أجزائها بعناية فائقة جمعت بين التاريخي والخصائص اللغوية والبلاغية حتى يلم الطالب بكل جوانب المادة، وتكون لديه خلفية علمية تساعده في حياته العلمية والمهنية .

وفي الأخير نسأل الله تعالى التوفيق والسداد لنا ولطلبتنا الكرام

د نجاة عرب الشعبة

بين الشعر والنثر: قضايا وإشكالات

منذ أن وجد الإنسان على هذه البسيطة، وهو يسعى في البحث عن سبيل تيسر له الحياة وتعينه على مواجهة متاعبها المادية والمعنوية. فكانت العلوم والفنون بشتى أنواعها أرقى ما وصل إليه فكره لتحقيق جل متطلباته في الحياة، فحققت له الأولى الكثير من أحلامه، وغيرت من نمط حياته، أما الثانية فقد هيأت له فرص الاستمتاع بملاذ الحياة، وفتحت له مجالات التعبير عما يجول بقريحته بشتى الطرق والوسائل؛ فالإنسان يجيد فنّ التعبير عما يعتلج في نفسه وفكره من تصورات وخواطر وآراء، وتصويرها بعدة وسائل أبرزها اللغة والكلام. .

وتظل اللغة الفنية المكتوبة الأداة الفذّة التي تخلّد آراء أصحابها، وهذه اللغة الفنية الراقية من جهة السبك والنّظم قد تكون شعراً وقد تكون نثرا. وحول هذين الفنين احتدم جدال أدبائنا ونقادنا القدامي، فطرحت بشأنهما قضايا عديدة أسالت مدادا كثيفا نتج عنه كتبا ومصنفات لا تحصى ولا تعد. نحاول في هذه المحاضرة أن نقف عند أهمها.

1. مصطلحات النثر ومفهومه:

أطلق القدامى على النثر مصطلحات كثيرة أبرزها: المنثور والكلام والكتابة. وهي مصطلحات قد تبدو متباينة من حيث دلالاتها.

إن المنثور يباين المنظوم ويخالفه لأن كل واحد منهما يشكل جنسا أو فنا مستقلا بذاته؛ يقول ابن خلدون: «وإنما المقصود منه [أي من علم الأدب] عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم».[1]

إن المنظوم والمنثور فنان تسمو قيمتهما، ويعلو شأنهما حسب ابن خلدون بشرط الإجادة. وهذه الإجادة هي ثمرة علم سماه ابن خلدون بـ (علم الأدب)؛ وتبعا لذلك فالشاعر والكاتب لا يجيدان إلا إذا كانا ملمين بذلك العلم.

وفي كتاب (البرهان) نجد تفريعا للمنثور الذي يضم أربعة أنواع نثرية، يقول صاحبه: «فأما المنثور فليس يخلو من أن يكون خطابة، أو ترسلا، أو احتجاجا، أو حديثا، ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه».[2]

إن المنثور يتخذ، إذن، أربعة أوجه أو أشكال يتحكم في استعمالها عاملان هما: المواضع والمقامات؛ علما بأن هناك تفاوتا واضحا بين هذه الأشكال الأربعة من حيث الانتشار والتداول، إذ لم يشتهر منها إلا الخطابة والرسالة.

كما أن ابن وهب يقارن بين المنثور والمنظوم فيقول: «اعلم أن سائر العبارة في لسان العرب إما أن يكون منظوما أو منثورا، والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام».[3] ومعنى هذا أن العبارة عند العرب إذا نظمت كانت شعرا، وإذا نثرت سميت كلاما.

2ـ أهمية النثر في الأدب العربي القديم:

يمثّل النثر العربيّ القديم مادّة نصّيّة غنية وخصبة، فأمّا وجه غناها فيتمثّلُ في حجم المادة النثرية وتعدد مباحثها، واختلاف أجناسها، وتباين أنواعها. ولعلّ النصوص النثرية المدوّنة التي وصلتنا بدءاً من الجاهلية إلى القرن السابع الهجري تفوق مثيلاتها في الحضارات واللغات الأخرى. لقد عرف التراث الأدبيّ العربيّ أجناساً نثرية عدة فبدءاً بالأمثال، وسجع الكهّان، والخطابة، والمنافرات، والمراسلات، والوصايا، والأخبار، والقصص، وقصص الحيوان، وقصص العشّاق، والقصص الفُكاهي، والقصص الدينيّ، والقصص الصوفيّ، والطُّرف، والنوادر، والحكايات، والمقامات، والمنامات، ومراسلات الخلفاء والولاة والقضاة، ومروراً بالحِجاج، والمناظرات، والمقابسات، والمساجلات وانتهاء بنصوص الرحلات، وأدب السّيرة، استطاع التراث الأدبيّ العربيّ إعادة النظر في سجل معارفه ومنظومة بيانه.

وأمّا وجه خصوبة مادة النثر العربيّ القديم فيرجع إلى تعدد الأطر والمجالات الموضوعية التي عالجتها النصوص، فقد استطاع النثر العربيّ القديم مقاربة موضوعاتٍ ومفاهيمَ لم يتمكّن الشعر العربيّ من مقاربتها وتناولها. والناظر في نصيّات النثر العربيّ القديم يكتشف ثراء مفاهيمها المعرفية؛ إذ استطاع النثر العربي القديم مُعالجةَ القضايا الاجتماعية، والسياسية، والدينية، والمذهبية، والأدبية، الأمر الذي يدل على أهمية الناثرين والنثر في رصّ صفوف المجتمعات، وإقامة التنظيمات الاجتماعية، والحفاظ على البنى السياسية والدينية والاجتماعية والعقائدية

3ـ أي النوعين أسبق (الشعر أم النثر؟):

حول أيّ الفنين أسبق من حيث الظهور؛ وأيهما الأكثر تأثيراً في السامعين والقارئين، وأيهما الأنسب في تهريب الآراء نحو عالم الخلود؟ لأن الإبداع هو محاولة لتهريب أجمل ما في روح وفكر الكاتب إلى الخلود والبقاء. فالمبدع يخشى أن تندثر بموته أفكاره وآراؤه فيلجأ إلى التعبير والعمل على حفظ ما دوّنه بأي وسيلة من وسائل الحفظ .

فالنثرُ قسيم الشعر في الفنون الكتابية، والنثر لغة العرب وكلامهم. ويُجمع بعضهم على الأسبقية التاريخية للنثر، إذ يرون أنّ النثر ـ إبداعيّاً ـ أصلٌ للشعر، فالشعرُ قبلَ أن يكون نظماً هو كلامٌ منثور جمعَتْ أشتاتَهُ الصنعةُ الفنيّة، وحين يتردّد أنّ النثر هو الحديث اليومي، فهذا لا يعني الهبوط بالنثر إلى مستوى الحديث المألوف بين الناس؛ لأنّ مثل هذا الحديث أنتجَ أدبَ المحاورات، وإلى نوع الكلام المنثور ينتمي حديث الرسول (، وتنتمي بلاغةُ الأعراب والحكماء، لذلك نجدُ عدداً وافراً من النقّاد القدماء يُفضلّون النثر، فها هو ذا أبو عابد الكرخي ـ على سبيل المثال ـ يقول: "من شرف النثر أنّ الكتب القديمة والحديثة النازلة من السماء على ألسنة الرُسل بالتأييد الإلهي كلها منثورة مبسوطة"[4]. ويرى الكرخي ـ أيضاً ـ في أفضلية النثر على الشعر، أنّ النثرَ أصلُ الكلام، والنظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع، والفرع أنقص من الأصل، لكن لكلٍّ واحدٍ منهما زائناتٌ وشائنات"[5]. ويُلِحُّ على أهم سبب يجعلُ من النثر الأشرف، وهو أنّ النثر لغة الكتب السماوية، فهي كلُّها "منثورة، مبسوطة، متباينة الأوزان، متباعدة الأبنية، مختلفة التصاريف، لا تنقاد للوزن وتدخل في الأعاريض، ومن شرف النثر أنّ الوحدة فيه أظهر، وأثرها فيه أشهر، والتكلّف منه أبعد، وهو إلى الصفاء أقرب" [6]فالكرخي يمدح النثر في شبهه بالكتب السماوية، وخاصة الشبه في ناحية تجسّد الوحدة الفكرية فيه، وبعده عن التصنّع الذي قد نجده في النظم فهو صناعي مأسور بالوزن، والقافية، وغيرها "وإذا كان باعث النظم الأول قبل العروض هو الذوق، فالذوق طباعي والطباعي هو مخدوم الفكر الذي هو منشأ النثر"[7].

ويمكن القول، إن التنازع بين الشعر والنثر مر بمرحلتين هما: «المرحلة الأولى، اكتسبت طابع صراع وجودي بين الشعر والنثر، حيث دارت أهم المناقشات حول الأسبقية في الوجود (الأصل،الفرع) أو أهمية المصدر(العقل، القلب)». [8] والمرحلة الثانية، تميزت ببروز الوعي النقدي للجمع بين الشعر والنثر، في ظل مفهوم جديد هو ما اصطلح عليه لدى العسكري بالكتابة. [9]

لهذا فإن النظر إلى الشعر والنثر باعتبارهما ثنائية يحكمها التضاد أو التنازع مسألة ما تزال تطرح بشكل مغلوط؛ إذ من المعلوم أن قضية الشعر والنثر طرحت من زوايا متعددة؛ كالنظر للنثر باعتباره منافسا للشعر.

من هنا كان الموقف السليم، في نظر الباحثين، يتمثل في معالجة قضية تنازع الشعر والنثر في إطارها الطبيعي وهو مسألة الأجناس الأدبية من حيث ظهور الأجناس وتطورها وتداخلها وتفاعلها واندثارها؛ خاصة وأن الأنواع الأدبية تعيش وتنمو وتتطور لأنها تنبثق من تراكم التجارب الإنسانية والفنية وتفاعل الأشخاص مع محيطهم لتستجيب لحاجات نفسية واجتماعية وفنية. ولهذا كانت مصداقية النوع تستمد من وظيفته، التي تتجاوز في بعض الأحيان حدود الأدبي إلى ما هو تاريخي أو اجتماعي.

3ـ المفاضلة بين الشعر والنثر:

تعد المفاضلة بين بين النثر والشعر من القضايا التي حظيت باهتمام النقاد، وشغلت حيزا كبيرا من الدراسات النقدية، حيث انقسم النقاد إلى فريقين متعارضين: أحدهما يرفع من شأن الشعر ويحط من قيمة النثر، والآخر يبجل النثر ويوثره على الشعر .

ولقد تناول أبو حيان التوحيدي قضية العلاقة بين النثر والشعر. حيث رأى أن منشأ هذه القضية فلسفي الطابع، ولاحظ أن الذين يفضلون الشعر على النثر أكثر من الذين يفضلون النثر على الشعر؛ وعرض لآراء نقّاد من الفريقين، وللحجج والبراهين التي يسوقونها، لتأكيد صحة ما يرون، فالذين يُفضِّلون الشعر يُفضِّلونه من أجل أبرز مزيّة فيه؛ وهي الوزن، كأبي سليمان المنطقي الذي يرى أنّ النظمَ ممَّا تتقبّله النفس أكثر ممّا تتقبل النثر؛ ذلك لأنّ "النظم أدلُّ على الطبيعة، لأنّه من حيّز التركيب، والنثر أدلُّ على العقل، لأنّ النثر من حيّز البساطة، وإنّما تقبلنّا المنظوم بأكثر من تقُّبلِنَا المنثور لأنّا للطبيعة أكثر منّا بالعقل، والوزن معشوقٌ للطبيعة والحسّ" [10].

أمّا الجاحظ فيُفضِّلُ الشعر على النثر، ويجعلُ مقاييسه مصدراً لقياس النثر، وهذا ما قرأه الدكتور عبد السلام المسدّي في مجمل نقد الجاحظ، وأوجزهُ قائلاً: "الجاحظ يكاد يجعلُ من الشعر رمزاً للخلق الأسلوبي الأوفى، لذلك نراه يخصُّ نقد النثر، ببعض المقاييس المستقاة من خصائص الحياكة الشعرية؛ كأن يكون الكلام قائماً على الشمائل الموزونة، حتى يكتسبَ ميزة الإيقاع المقطعي، وهذا ما يُعلّلُ الوصية الفنيّة المبدئية: "إنْ استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا"[11].

والمظّفر بن الفضل العلوي كتبَ "نضرة الإغريض في نصرة القريض"، وفيه يُكرِّسُ خمسة فصول لوصف الشعر، وأحكامه، وتَبيّن أحواله، وأقسامه، وذكر آلاته؛ من بلاغة، ونحو، وفصاحة، وحقيقة، ومجاز، وما يجوز للشاعر، وما لا يجوز، وفَضْلِ الشعر، ومكانته في الحياة العربية، والمفاضلة بين الشعر والنثر، لينتهي من ذلك كُلّه إلى تفضيل الشعر ونصرته، وتعداد فضائله التي يمتاز بها عن النثر، يقول: "ومن فضيلة الشعر أنّ الكلام المنثور وإنْ راقت ديباجته، ورقّت بهجته وحَسُنَتْ ألفاظه، وعَذُبَتْ مناهله إذا أنشده الحادي، وأورده الشادي، ومدَّ به صوته المطربْ، ورفعَ به عقيرته المنشد، لا يُحرِّكُ رزيناً، ولا يُسلّى حزيناً، ولا يُظهرُ من القلوب كميناً، ولا يُخَوِّنُ من الدمع أميناً، فإذا حُوِّلَ بعينه نظماً، ووُسمَ بالوزن وسماً، ولج الأسماع بغير امتناع" [12].

فالمظّفر يُفضّلُ الشعر على النَثر، لأنّ النثر يفتقر إلى عناصر تعودتها الذائقة الفنيّة العربية، ويملكها الشعر، وتكرّست بالنقد، هذه العناصر هي الإيقاع المطربْ، الذي يُخاطبُ مشاعر السامعين فيُحرِّكُ ساكنهم، ويُسلّي حزينهم، ويكشفُ عن المخبّأ في نفوسهم من فرحٍ أو حزن، وفي رأي المظفّر لا يمكن للنثر أن يقوم بمثل هذا الدور الخطير، إلاّ إذا تخلّى عن هويته العقليّة، واستعار هوية الشعر العاطفية.

ومن النقاد العرب القدامى الذين ــ أيضاـ فضلوا الشعر على النثر؛ الحاتمي ، وابن رشيق القيرواني. ولعل من أسباب تفضيل هؤلاء الشعر على النثر ما يتمتع به الشعر من خصائص شكلية وإيقاعية كالوزن والقافية، وتوظيفه اللغة بطريقة تمنحه مميزات على كل المستويات.

وأما القائلون بتفضيل النثر أبو عابد الكرخي كما تقدم القول في رأيه، والمرزوقي الذي مال إلى جانب النثر، وفضله محتجا بذلك بثلاثة أسباب، أولها إن "الخطابة كانت أهم من الشعر عند الجاهليين وكانوا يعدونها أكمل أسباب الرياسة وأفضل آلات الزعامة ... أما ثانيهما؛ فهو أن الشعراء حطوا من قيمة الشعر باتخاذهم الشعر مكسبا وتجارة فمدحوا السوقة وتعرضوا لأعراض الناس. وثالثها أن الإعجاز بالقرآن لم يقع بالنظم" [13]

ثم ذكر المرزوقي السبب الخاص في قلّة المترُسلّين وكثرة المفلقين، وهو أنّ "مبنى "الترسّل" على أن يكون واضح المنهج، سهل المعنى، مُتّسع الباع، واسع النطاق تدلُّ لوائحُه على حقائقه، وظواهرُه على بواطنه، إذا كان مورده على أسماع مفترقة من خاصيٍّ وعاميٍ، وأمّا مبنى الشعر فهو على العكس من جميع

ذلك، لأنّه مبنيٌ على أوزانٍ مقدَّرةٍ، وحدود مُقسّمة، وقواف يُسَاقُ ما قبلها إليه"[14] . ولذلك فكُلُّ ما يُحمَدُ في الترسل ويُختار، يُذَمُّ في الشعر ويُرفض.

والقلقشندي أيضاً، قارنَ بين المنظوم والمنثور، وفضّل المنثور، على الرغم من مزايا النظم وفضائله المتعدّدة؛ من وزنٍ، وقافية، وتوازن أجزاء، ومن مزيّةِ كونه ديوان العرب وكتاب تاريخهم، ووقائعهم، وسائر أحوالهم، فإنّ النثر حسب رأيه أرفع درجة وأعلى رتبةً وأشرف مقاماً وأحسن نظاماً.

لقد كانت إحدى أخطر نتائج تفضيل الشعر على النثر، والفصل بينهما، انقسام النص الإبداعي إلى مضمون سابق وشكل لاحق، وإلى اعتبار المعنى محور اهتمام النثر، واللفظ (أي الشكل) محور اهتمام الشعر. لكنَّ طغيان الاهتمام بالشعر وتفضيله على النثر، لا يعني إهمال النقّاد القدماء للنثر إهمالاً مطلقاً، فقد قاربوا الكثير من القضايا النقدية المتعلّقة به، ووضعوها محلّ اهتمامهم، مثل أدب الرسائل، والخطب، والبلاغة النثرية، والمفاضلة بين الشعر والنثر، وتصنيف النثر، وتنافس الكتّاب في ميدان الكتابة النثرية؛ ولذلك يمكن القول: إنّ المقارنة بين الشعر والنثر قضية أفرزتها مستجدات ثقافية، شهدها العصر العباسي، فقد وُلِدَ فنٌ جديد هو فن الكتابة، الذي أتقنه كُتّابٌ مجيدون، ونافسَ النثرُ الشعرَ، والكاتبُ الشاعرَ، في ظلِّ ظروفٍ سياسية وفكرية، ولم يعد الشعر ـ وحده ـ يستوعبُ ضروبَ الجدل والحوار والتناظر، التي استجدّت حول قضايا عقليّة، وصوفيّة، وفلسفيّة.

4ـ الفرق بين الشعر والنثر:

ينقسم الكلام إلى كلام منظوم (شعر) ومنثور (نثر)، ويمكن التفريق بين الشعر والنثر من خلال النقاط الآتية:

الشعر يتكلّف صاحبه في نظمه، وذلك من خلال التكلّف في الوزن والقافية، أمّا النثر فلا يُكلّف صاحبه، وعلى هذا اعتبر بعض الأشخاص أنّ الشعر أفضل من النثر. والشعر ديوان العرب، بينما النثر ليس كذلك، فالشعر هو الذي احتفظ بأمجاد العرب، ومفاخرهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وما إلى ذلك. الشعر يتلاءم مع الموسيقى، وهو مصدر الغناء والموسيقى، فموضوع الشعر بحدّ ذاته غناء، أمّا النثر فلا علاقة له بالغناء والموسيقى .

اعتبر أنصار النثر أنّ الشعر فنّ ولهو، ولا يصلح لأغراض الحياة المتعدّدة، ولكن النثر يصلح لجميع مناحي وضروريات الحياة، وأفضل لحياة الناس وأمورهم. النثر هو لغة السياسة، والخطاب، ولغة العلم،

وكذلك لغة الدين. الناثر ينثر كلامه إمّا واقفاً وإمّا جالساً، ولكن من الضروريّ أن ينشد الشاعر شعره وهو واقف .

ويعرّف الشعر على أنّه الكلام الموزون المقفّى له معنى، بينما النثر فيمكن تعريفه على أنه الكلام المرسل، الذي يُكتب دونما الحاجة إلى قافية ووزن معين، وهو على عكس الشعر المنظوم، ويسمى من يكتب النثر بالناثر، وهو الشخص الذي يجيد كتابة النثر.

ويُلاحَظ أنّ كتابة الشعر أصعب وأعقد من كتابة النثر؛ فلا تتوقّف كتابة الشعر على أن يُمسك الشاعر بقلمه، وينظم أيّ شعر يريد؛ بل يجب أن يمتلك الموهبة الشعرية والإلهام الشعري، إلى جانب ذلك يجب أن يحافظ الشاعر على اتّزان القصيدة، وإيهام القارئ بعفويته وثقته، ومن المعلوم أنّ الإبداع الشعريّ قليل، ومداه قصير، ونتاجه محدود، فقد كان يمكث شعراء الجاهليّة عاماً أو حولاً كاملاً في نظْم قصيدة واحدة، وفي هذا إشارة إلى اهتمام طائفة من شعراء الجاهلية بإظهار شعرهم بأبهى وأروع صورة، أمّا كتابة النثر فعلى العكس من كتابة الشعر، حيث يحتاج كُتّاب المقالات أو القصص النثرية إلى التنظيم والإرادة في كتاباتهم، ولا يلتزمون بالوزن والقافية. فالنثر لا يرجو الموسيقى ولا يسعى لها حثيثا، وإن كان ذلك يصيب بعض النصوص النثرية فيثريها، لكنه ليس فرضا واجبا في النثر، كما هو الحال في الشعر، إذ يعد خلو الشعر من الموسيقى من مبطلات الشعر، ومن تصاب قصيدته بهذا الداء عليه أن يجبر كسرها ويعيد بناءها .

ـ الإيقاع الداخلي الذي يجب أن يتحقق في الشعر، في حين ليس مطلوبا في النثر، فالقصيدة يجب أن تحتوي ظواهر فنية وأساليب لغوية متكررة تزيد من الإيقاع العام في القصيدة، أما في النثر فإن وجد ذلك فهو أمر جيد، وإن لم يوجد فلابأس ولا يعد ضعفا ووهنا فيه على عكس الشعر.

ـ اللغة في الشعر تختلف عن لغة النثر، يجب أن تكون لغة الشعر موحية ذات موسيقى، ولغة الشعر هي الهوية التي تمنح النص الشعري الإبداع والتميز عن غيره من النصوص، وقد رسم النقاد حدودا للشعراء يتحركون فيها في انتقاء كلماتهم، فكلّ سياق يناسبه نوع معين من الكلمات، فالغزل تناسبه كلمات اللطافة والرقة والعذوبة والانسيابية، أمّا الهجاء فتناسبه القوّة والشدة والصلابة، إضافة إلى تناسب الكلمات مع سياقاتها فيجب أن تكون الكلمات ذات إيحاءت متعددة وتتفرع رمزيتها، وهذا الأمر ليس شاغلا للناثر. وهنا قد يقول قائل: إن الرمزية وتعدد الدلالة صبغة حديثة للشعر، ولم يكن الشعر القديم يصطبغ بهذه

الصبغة، والجواب عن ذلك بأن الشعر القديم وإن كان لا يستكثر من الرمزية إلا أنه يقوم على الإيحاء والاختصار، فالشاعر يعبر عما يريد من دون تفصيل وإطالة كما يحدث في النثر الذي يعتمد على الشرح والبيان، فالخطيب يظل بحاجة إلى توضيح رأيه لا تعميته، وكذلك القاص، أما الشاعر، فهو غير منشغل بفكرة التوضيح، بل قد يعمد إلى الغموض والتعمية، ليزيد من حيوية النص وجماله.

الهوامش:

1ـ محمد مشبال، بلاغة النادرة، منشورات نادي الكتاب لكلية الآداب بتطوان، الطبعة الأولى، 1998، ص:87.

2ـ ابن خلدون، المقدمة، المكتبة العصرية صيدا . بيروت، 1425 هـ . 2005 م، ص:553.

3ـ أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، البرهان في وجوه البيان: الكاتب، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، مكتبة الشباب القاهرة، ط 1، 1969، ص:150.

4. ـ البرهان في وجوه البيان، ص:127.

5ـ أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة دار التراث، القاهرة الجزء 2، 1995، ص 133.

6. ـالمرجع نفسه، الإمتاع والمؤانسة الجزء 2، ص 132.

7. ـالمرجع نفسه، الجزء 2، ص 132.

8ـ نفسه، الجزء 2، 134.

9ـ أبلاغ محمد عبد الجليل ، شعرية النص النثري، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1ـ 2002ص:57.

10ـ أبو حيان التوحيدي، المقابسات، تحقيق: حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، ط2، القاهرة، 1996، ص 245

11. عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، دار سعاد الصباح، الكويت، ص 138

12ـ المظفّر بن الفضل العلوي، نُضرة الإغريض في نُصرة القريض، تحقيق نهى عارف الحسن. دار الجيل، بيروت ص359.

13ـ المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين، وعبد السلام هارون، دار الجيل، ط 1 بيروت، 1991 ص 17/16

14 ـ المرجع نفسه ص 17

الأمثال والحكم في العصر الجاهلي

تعتبر النصوص الأدبية التي وردت إلينا من العصر الجاهلي الأساس الأول الذي قام عليه صرح الأدب العربي، فقد توارثته الأمة العربية جيلا بعد جيل ووجدت فيه الزاد الفني والثقافة الأدبية الرفيعة. وإن كان أغلب تراث الأدب الجاهلي شعرا؛ فإن للنثر أيضا حضورا بارزا في الثقافة الجاهلية، ذلك أن النثر الذي يعد على رأي شوقي ضيف أدبا حقا هو النثر الذي يقصد به صاحبه على التأثير في نفوس السامعين والذي يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء " وهو أنواع، نقف في هذه المحاضرة عند الأمثال والحكم.

أولا- الأمثال:

كان للعرب اجتماعات خاصة وعامة، وعلى نطاق ضيق وعلى نطاق واسع، وكانت بينهم منافسات وتسابق في المفاخر، والأمجاد، والأفعال، والعادات، وحدثت بينهم مشكلات، وخصومات، وعداوات، كما كانت لهم تجارب في الحياة، فتكونت لديهم خبرات، كانوا يحبون –بطبيعة الحال– أن يضعوها بين أيدي من يحبون، لكي يستفيدوا بها في حياتهم، كل هذه المناسبات كانت تستدعي القول، وهنا ليس القول العادي وإنما القول المؤثر الذي يحفل به صاحبه، ويودع فيه من طاقات الإثارة كل ما يستطيع.

والأمثال أصدق قول يتحدث عن أخلاق الأمة وتفكيرها وعقليتها، وتقاليدها وعاداتها، ويصور المجتمع وحياته وشعوره أتم تصوير. والأمثال مرآة للحياة الاجتماعية والعقلية والسياسية والدينية واللغوية، وهي أقوى دلالة من الشعر في ذلك لأنه لغة طائفة ممتازة، أما هي فلغة جميع الطبقات.

1. المثل لغة :

إن معنى مادة "مثل" يتوزع في معجمات اللغة العربية بين هذه المفاهيم التي يختلط فيها المحسوس والمجرد: التسوية والمماثة، الشبه والنظير، الحديث الصفة، الخبر، الحذو، الحجة، النِّد ، العبرة ،...إلخ [1]. وقد ورد عن مادة مثل في لسان العرب: مثل : كلمة تسوية يقال هذا مثله ومثله كما يقال شبهه وشبهه...

الفرق بين المماثلة والمساواة ان المساواة في الجنس والمتفقين، لان التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص، وأما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين . والمثل: الحديث نفسه.. ومثل الشيء صفته[2]

ـ المثل اصطلاحا:

وردت كلمة مثل في كتب التراث على الصورة ذاتها التي وردت في المعاجم مع فارق طفيف يعود إلى الغربلة التي تفضي إلى الخروج بمادة مثل من أفق اللغة إلى مدى الاصطلاح . فابن المقفع يقول: "إذا جُعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق وأنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث"[3] .

ويشير ابن وهب إلى توسل الحكماء والعلماء والأدباء الأمثال ليبينوا للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشباه [4] وأما ابن عبد ربه فيصف الأمثال بأنها " وشي الكلام وجوهر اللفظ وجلي المعاني.. فهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة لم يسر شيء مسيرها ولا عم عمومها حتى قيل أسير من مثل"[5]. ويرى الفارابي أن المثل أبلغ من الحكمة لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة[6].

في هذا التعريف إبراز لمسألة الإجماع على الأمثال كأداة تعبيرية عن أشياء لا يعبر عنها بشكل مباشر إلا بصعوبة بالغة، ناهيك من أن الفارابي يشير إلى التأثير النفسي الفعال للأمثال، فهي متنفس معاناة الشعوب التي تعكس حاجات الأفراد الشخصية في دلالة اجتماعية إنسانية شاملة.

2ـ المثل في كتب الأمثال:

عني النقاد القدامى بالأمثال أيما عناية، مما جعل الكثيرين يؤلفون في هذا النوع النثري مؤلفات خاصة جمعوا في ثناياها الآلاف من الأمثال نستعرض فيما يلي موجزا لأهم ما ورد في بعضها:

ورد في كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم تعريفا للأمثال أنها" حكمة العرب في الجاهلية والإسلام وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها فتبلغ من منطق بكناية غير تصريح فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه "[7] فالأمثال في هذا التعريف هي الحكمة الناتجة عن التجربة التي يعبر عنها كناية أي بطريقة غير مباشرة. ونجد أبا هلال العسكري يفرق في كتابه "جمهرة الأمثال" بين الحكمة والمثل عن طريق الذيوع والانتشار، فيرى أن كل حكمة سائرة تسمى مثلا، وأن القائل قد يأتي بما يحسن من الكلام أن يتمثل به إلا أنه لا يتفق أن يسير فلا يكون مثلا، ويشير إلى أن الأمثال تضرب على ما جاءت عن العرب ولا تغير صيغتها[8]

وأما الميداني فإنه يستهل مقدمة مؤلفه "مجمع الأمثال" بعرض آراء بعض أهل اللغة والأدب وعلم الكلام مستهلا هذا العرض برأي المبرد الذي يقول: " المثل مأخوذ من المثال وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول والأصل فيه التشبيه فقولهم: (مثُل بين يديه) إذا انتصب معناه أشبه الصورة المنتصبة، (وفلان أمثل من فلان) أي أشبه بما له من الفضل، والمثال القصاص لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول ...فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من المواعيد " [9]

ومن النقاد واللغويين القدامى الذين عنوا بالأمثال نذكر الزمخشري في كتابه "المستقصى" وابن قيم الجوزية "الأمثال في القرآن الكريم"، وحسن اليوسي "زهر الأكم في الأمثال والحكم" ، والمفضل الضبي"أمثال العرب" ..إلخ

تصنيف الأمثال:

تصنف الأمثال حسب سمتها الاصطلاحية إلى ثلاثة أنواع :

أ- المثل السائر: وهو المقصود من كلمة "مثل" التي تضمنتها مصادر اللغة والأدب التي وقفنا عند بعضها آنفا، وهي كلمة موجزة قيلت في مناسبة ما ثم تناقلتها ألسن الناس جيلا إثر جيل.

ب ـ المثل القياسي: وهو نوع من التشبيه يسميه البلاغيون بالتمثيل المركب، كقولنا كانت القرى مطمئنة فدهمها السيل فأصبحت كالسفن الهائجة في البحر المضطرب .

ج ـ المثل الخرافي: وهو حكاية ذات مغزى تقال على لسان غير الإنسان، وتهدف لغرض تعليمي أو فكاهي.

صورة التربية في الجاهلية :

إن الظروف الخاصة للحياة الجاهلية أملت على الإنسان العربي طابعا خاصا، فما يتعلق بفنون التربية لم تتخذ لها مؤسسات تتحلى بهيكلية خاصة كتلك التي نجدها في العصر الحالي، حيث كانت مجالس القبيلة خصوصا في البادية هي المدرسة الأولى للنشأ؛ فكان القوم يجتمعون فيتذاكرون أخبارهم وأخبار القبائل الأخرى، ثم يعرجون على أخبار السلف وما فيها من عبر ومغاز، وفيها كان الصغار يتلقفون علم الأنساب ويحفون الأشعار والحكم والأمثال عن الشيوخ . وقد قسم الدارسون التربية الجاهلية إلى قسمين: التربية في منحاها التعليمي، والتربية في منحاها الاجتماعي.

أ ـ التربية التعليمية:

لم تذكر كتب الأمثال وجود فضاءات للتعليم في البيئة الجاهلية تنشط لنشر التعليم قراءة وكتابة

ب ـ التربية الاجتماعية:

كانت تدور حول ثلاثة محاور رئيسية: الفروسية والكرم والشرف وهذه المحاور نفسها تمد ظلالها لتغطي المجتمع الجاهلي برمته.

ـ مجال الفروسية:

إن كتب الأمثال تعطينا صورة واضحة عن تربية الجاهليين الاجتماعية ففي محور الفروسية قل أن تجد مثلا لا أثر للفروسية فيه، بل إن أغلبها يكون في موضوع الفروسية، وتتضمن مضامين مختلفة كتمجيد الفارس وتزيين مكانته في المجتمع الجاهليز ومن أمثلة ذلك : قولهم " أفرس من سُمِّ الفُرْسان" وفيه إظهار للفروسية في قبيلة تميم، وقولهم: "أَفْرسُ مِن مُلاعِب الأَسِنَّة" وفيه إظهار للفروسية في قبيلة قيس، وقولهم "أفْتَك مِن البَرَّاد" وهو رمز عن فرسان بني كنانة، وقولهم: "أفتك من الحارث بن ظالم" وهو نموذج عن فرسان قُضاعة، وقولهم "أفتك من عَمْرو بن كلثوم" وفيه تبيان للفروسية في تَغْلُب. ومن المثال ما لم يربطون الفروسية بقبيلة معينة؛ كقولهم: "أحْمى مِن مُجير الظَّعْن"، "أحْمى مِن مُجير الجراد"

ـ مجال الكرم والجود:

لقد كان الكَرَم مِن أبرز الصِّفات في العصر الجاهلي، بل كانوا يتباهون بالكَرَم والجُود والسَّخاء، ورفعوا مِن مكانة الكَرَم، وكانوا يصفون به عظماء القوم، واشتهر بعض العرب بهذه الصِّفة الحميدة حتى صار مضربًا للمثل، ونذكر بعض النَّماذج مِن الأمثال في ذلك، قولهم: "أجود من حاتم "، "أجْود من هَرِم"، "حدِّث عن معْن ولا حرج"، " الشحيح أعذر من الظالم"، "أقرى من زاد الركب"، "أبخل من مادر"..إلخ

ـ مجال الشرف والأعراض:

تعددت أخلاق العرب وتباينت تباينا كبيرا، مثلهم مثل باقي شعوب العالم، فكانت لهم رذائل ومساوئ تنكرها فطرة الإنسان السليمة، مثلما كانت لهم سجايا وشمائل طيبة حرص العرب على التحلي بها والتفاخر بها حفظتها آدابهم شعرا ونثرا. وتتضمن هذه الشمائل قيما أخلاقية لعل أهمها الحفاظ على

العرض والشرف، وقد تمثلتا في أمثالهم أبرز تمثيل، كقولهم: "تجوعُ الحرةُ ولا تَأْكُل بثَدْييها"، و"أَنْصُرْ أخاك ظالما أو مظلوما" وفيه إشارة واضحة عن الذود عن العرض، وقولهم: "ذكَّرْتَني الطّعْنَ وكنْتُ ناسِيا"، وقولهم: "مِن كرَم الكريم الدَّفعُ عن الحَريم"، وقولهم: "قدْ وقع بينَهم حربُ داحِس والغَبْراء"، وغيرها من الأمثال الكثيرة.[10]

والأمثال في الغالب أصلها قصة، أي أن الموقف الأصلي الذي ضرب فيه المثل يكون قصة أدت في النهاية إلى ضرب المثل، والفروق الزمنية التي تمتد لعدة قرون بين ظهور الأمثال ومحاولة شرحها، أدت إلى احتفاظ الناس بالمثل لسهولتة وخفته وتركوا القصص التي أدت إلى ضربها .

ثانيا الحكمة في النثر العربي القديم:

1ـ لغةً: الحَكَمَةُ: ما أحاط بحَنَكَي الفرس، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تمنعه من الجري الشَّديد، وتُذلِّل الدَّابَّة لراكبها، حتى تمنعها من الجِماح[11]، ومنه اشتقاق الحِكْمَة؛ لأنَّها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل. وأَحْكَمَ الأَمْرَ: أي أَتْقَنَه فاستَحْكَم، ومنعه عن الفساد، أو منعه من الخروج عمَّا يريد[12]

2ـ الحِكْمَة اصطلاحًا:

قال ابن القيِّم: "الحِكْمَة: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي"[13].

وقال النَّووي: "الحِكْمَة، عبارة عن العلم المتَّصف بالأحكام، المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النَّفس، وتحقيق الحقِّ، والعمل به، والصدِّ عن اتِّباع الهوى والباطل، والحَكِيم من له ذلك"[14].

الحكمة الكلام الموافق للحق، الفلسفة، صواب الأمر وسداده.

والحكمة عصارة خبرة في الحياة وفهم لأسرارها يدبجها ذهن ذكي وتمتاز بصفة التجريد التي تجنح بها نحو آفاق الفلسفة. وهي قول رائع يتضمن حكْمًا صحيحًا مسلَّمًا به، حيث تنشأ من إعمال الفكر والتعمق في درس الحياة والتفلسف في مناهجها واستكناه اسرارها

3ـ الحكمة في القرآن الكريم:

وردت الحكمة في القرآن الكريم في أكثر من موضع موازية للوحي والكتب السماوية المنزلة على الأنبياء، قال تعالى:

"ذلِك مِمّا أوحَى إلَيك ربُّك من الحكمةِ" (الإسراء /39)

"يتلُوا عَلَيكمُ ءَاياتِنا ويُزَكِّيكُم ويعَلِّمُكم الكتابَ والحِكمةَ" (البقرة / 151)

"ويعَلِّمُهُ الكتابَ والحكمةَ والتَّوراةَ والانجيلَ" (آل عمران / 48)

"وأنزَلَ اللّهُ عَلَيك الكتابَ والحِكمَةَ" (النساء / 113)

4ـ الحكمة الأدبية: هي كلمات قصيرة، موقرة بالمعنى (جوامع كَلِم) توافق للحق، وتؤلِّف قانوناً ذاتيا وجدانيا يضيء نفس المرء، بإشراقات توجيهية، ويدفعه نحو الخير، ويسوّره بالإنسانية. وأدب الحِكم هوفن كلامي (نثر أوشعر) موافق للحق في مضامينه، يرسله صاحبه بعد تأمل ليعبر عن حقيقة حياتية.

5 ـ من أسباب انتشار الحكم والأمثال في البيئة الجاهلية:

لاقت الحكم والأمثال شهرة كبيرة في العصر الجاهلي، حيث إنها انتشرت على ألسنة الناس عامّة، وربما يعود ذلك لما امتاز به العرب من فصاحة وبلاغة وتجارب كثيرة في الحياة، ومن أبرز من قالوا أشهر الحكم والأمثال في العصر الجاهلي: لبيد بن ربيعة، قس بن ساعدة، امرؤ القيس، ربيعة بن حذار، عامر بن الظرب العدواني، سهيل بن عمرو، هرم بن قطبة الفزاري وأكثم بن صيفي التميمي، ويبدو أن من أسباب انتشار الحكم والأمثال في العصر الجاهلي نذكر ما يلي :

إن العرب أهل لسان وفصاحة فكانت البديهة اللغوية حاضرة مع الإنسان العربي حيث كان، ناهيك عن البيئة الفطرية التي تسود فيها الأمية وتشتد الحاجة فيها إلى التجارب المستخلصة بصورة أقوال لها معنى صادق. يضاف إلى ذلك أيضا ارتباط المثل بحادثة أو حكاية تسمى المورد ساعدت على انتشاره. كما أن صياغة الأمثال في غالب الأحيان في عبارة حسنة، يظهر فيها دقة التشبيه بين مورد المثل والمناسبة التي قيل فيها بما يرضي فيها الذوق العربي. شيوع الحكم على الألسنة؛ وذلك لاعتمادها على التجارب واستخلاص العظة من الحوادث والتمكن من ناحية البلاغة

8 ـ الخصائص الفنية للحكم والأمثال:

لقيت كل من الأمثال والحكم شيوعًا كبيرًا في العصر الجاهلي؛ لخفتها وعمق ما فيها من قيم أخلاقية، بالإضافة إلى إصابتها للغرض المنشود منها، وصدق تمثيلها لحياة الناس العامّة ولأخلاق الشعوب كذلك، ومن أبرز الخصائص الفنية التي ميّزت الحكم والأمثال في العصر الجاهلي؛ أنها تتميز بإيجاز اللفظ

والسبك الجيّد. وإصابة المعنى المنشود. وحسن التشبيه من خلال استخدام ضروب البلاغة. وجودة الكناية والاستعارات. وإيرادها بأسلوب سهل وبسيط لا أثر للصنعة الإنشائية فيه .

9 ـ الفرق بين الحكمة والمثل:

والفرق بين الحكمة والمثل، أن الحكمة قول موجز جميل، يتضمن حُكماً صحيحاً مسلماً به. لأنه نابع من الواقع ومعاناة التجارب في الحياة، مثل: (آخرُ الدواءِ الكيّ، وأولُ الشجرةِ النواةُ، وإنكَ لا تجني من الشوكِ العنبَ). وأما المثل فهو – في أصله – قول يقترن بقصة أدت إليه، ثم يدخل في نطاق الأمثال حين يستشهد به في مقامات مماثلة، وفي حالات مشابهة للحالة الأولى التي ورد ذلك القول فيها. وتختلف الحكمة عن المثل في أنها تصدر غالبا عن طائفة خاصة من الناس لها خبرتها وتجاربها وثقافتها، بعكس المثل الذي يصدر عن عامة الناس.

وقد دون العرب حكمهم وأمثالهم منذ أوائل العصر الأموي، وهذا مما ساعد على حفظها وتواترها على الألسنة. وأكثر تلك الحكم والأمثال لا يعرف أصحابها أو قائلوها، وقد سيقت بأسلوب سهل، لا أثر للصنعة الإنشائية فيه، وبعضها بل أكثرها، يعد من الإنشاء الرفيع، والسبك الجيد. وكثير منها أشطار موزونة، ربما كانت مقتطعة من أبيات كاملة، مثل: «رضيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ» وهو عجز بيت لامرئ القيس . كما لا تخلو صياغة بعض الحكم والأمثال أحياناً، من خروج على النظام اللغوي. كقولهم: <<مكرهٌ أخاكَ، لا بطلٌ >>.

وفي الغالب تغلب روح الأسطورة على الأمثال التي تدور في القصص الجاهلية مثل الأمثال الواردة في قصة الزباء ومنها "لا يطاع لقصير أمر"، و"لأمر ما جمع قصير أنفه."، وكذلك الأمثال الواردة في قصة ثأر امرئ القيس لأبيه ومنها: " ضيعني صغيرا وحملني ثأره كبيرا – لا صحو اليوم ولا سكر غدا – اليوم خمر وغدا أمر."

ومن الأمثال الحقيقة: "تجوع الحرة ولا تأكل بثديها" يضرب في صيانة الشخص نفسه عن خسيس الكسب، وهو للحارث بن سليل الأسدي، "وسبق السيف العذل". ويضرب للفائت يستحيل تداركه، وقائله ضبة بن أد بن طابخة. وكتب الأمثال في العادة تذكر المثل وقائله وتشرح السبب الذي قيل من أجله. ومن الأمثال الفرضية: "كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك" يضرب لمن لا يجاب إلى عهد لظهور آثار غدره (قصة الرجل والأفعى).

وممن اشتهر بالحكمة من العرب، أكثم بن صيفي التميمي، وعامر بن الظرب العداوني، وهما من المعمرين، وكانت العرب تحتكم إليهما، ويقال إن عامر بن الظرب لما كبر واعتراه النسيان أمر ابنته أن تقرع بالعصا إذا جار عن القصد وكانت ابنته من حكيمات العرب مثل هند بنت الخس. ومن أقوال أكثم: "ويل للشجي من الخلي، لم يذهب من مالك ما وعظك، رب عجلة تهب ريثًا، ادرعوا الليل فإنه أخفى للويل، إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد، ليس من العدل سرعة العذل، لا تطمع في كل ما تسمع، رب قول أنقذ من صول، حافظ على الصديق ولو في الحريق". ومن أقوال عامر بن الظرب: "رب زارع لنفسه حاصد سواه، من طلب شيئًا وجده، وإن لم يجده أوشك أن يقع قريبا منه."

الهوامش:

1ـ راجع، محمد توفيق أبو علي، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1988، ص 32

2ـ ابن منظور، لسان العرب، مادة (م ث ل)

3ـ ابن المقفع، آثار ابن المقفع (كليلة ودمنة، الأدب الصغير، الأدب الكبير)، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 330

4ـ بن وهب، البرهان في وجوه البيان، تقديم وتحقيق، حفني محمد شرف، مكتبة الشباب القاهرة، ط 1، 1969، ص 146/145

5ـ ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1976 ج 3 ص 2

6ـ الفارابي، ديوان الأدب، دار التراث، القاهرة،1987 ،ج 2 ص 74

7ـ أبوعبيد ابن سلام، كتاب الأمثال، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د ت. ص 34

8ـ أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق: إبراهيم وقطامش، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ج 1، ص7

9ـ الميداني، مجمع الأمثال، دار الجيل ، بيروت 1987، ج 1، ص6/5

10ـ للتوسع راجع المصادر التالية: مجمع الأمثال للميداني، والمستقصى للزمخشري، والدرة الفاخرة للأصبهاني

11ـ لسان العرب ، مادة (ح ك م)

12ـ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الحديث القاهرة، 1970 ، مادة (ح ك م)

13ـ بن القيم الجوزية، مدارج السالكين، تحقيق، عماد عامر، دار الحديث، القاهرة،1993ج 2، ص 449

14 ـ النووي، شرح النووي على مسلم، دار بيت الأفكار الدولية، ص 135

سجع الكهان

مقدمة :

الكهانة ظاهرة قديمة عرفتها الأمم جميعها في سالف الأزمان والأوطان، وهي ليست وليدة العقلية العربية في البيئة الجاهلية، ففي المجتمع الجاهلي وجدت فئة عرفت باسم "الكهّان"، كانوا سدنة المعابد الوثنية، وادعى هؤلاء المعرفة بالغيب وسطاؤهم في ذلك الجن، ويلجأ الناس إليهم يستشيرونهم قبل قضاء حوائجهم ومتعلقاتهم؛ كالسفر أو الزواج أو الثأر والقتال أوفي تفسير الأحلام أو غير ذلك من الشؤون الحياتية الأخرى. وكان المجتمع في ذلك الوقت يتقبل أمثال هذه المعتقدات لعدم توفر جهة أخرى تريحهم وتطمئن أرواحهم، وكان الكهان يستغلون ذلك استغلالا بشعا من أجل فرض آرائهم وسيطرتهم الروحية على المجتمع، ولو صدف وصح توقع الكاهن في حادثة ما فإن الناس يتناقلونها ويضخمون وقائعها ويبالغون في اعجابهم بالحدث المعجز وهذا ما جعل الناس يبدون تجاههم نوعا من الخشية الممزوجة بالاحترام والتوقير.

1 ـ الكهانة لغة واصطلاحا:

أـ لغة: وردت كلمة كهانة في معاجم اللغة العربية، فجاء في كتاب العين: "كَهَنَ الرّجل يكْهُنُ كِهانَةً ... ويقال كهن لهم إذا قال لهم قول الكهنة وفي الحديث لَيْسَ منَّا مَنْ تكَهَّن أو تُكُهِّن له"[1]

وفي لسان العرب: كهن: الْكَاهِنُ: مَعْرُوفٌ. كهَنَ لَهُ يَكْهَنُ وَيَكْهُنُ وَكَهُنَ كِهَانَةً وَتَكَهَّنَ تَكَهُّنًا وَتَكْهِينًا، الْأَخِيرُ نَادِرٌ: قَضَى لَهُ بِالْغَيْبِ. الْأَزْهَرِيُّ: قَلَّمَا يُقَالُ إِلَّا تَكَهَّنَ الرَّجُلُ. غَيْرُهُ: كَهَنَ كِهَانَةً مِثْلَ كَتَبَ يَكْتُبُ كِتَابَةً إِذَا تَكَهَّنَ، وَكَهُنَ كَهَانَةً إِذَا صَارَ كَاهِنًا. وَرَجُلٌ كَاهِنٌ مِنْ قَوْمٍ كَهَنَةٍ وَكُهَّانٍ، وَحِرْفَتُهُ الْكِهَانَةُ [2]

وجاء في معجم الوسيط، الكَاهِن: كلّ من يتعاطى علمًا دقيقًا. ومن العرب من كان يُسمِّي المنَجِّمَ والطبيبَ كاهنًا والذي يقوم بأمر الرجل ويسْعَى في حاجته. وعند اليهود والنَّصَارى: من ارتقى إلى درجة الكهنوت وعند أَصْحاب الديانات الأخرى من غير المسلمين: من ساغ له أَن يُقدِّم الذبائحَ والقرابين ويتولى الشعائرَ الدينية. و(حُلْوانُ الكَاهِنِ): أَجرُه.و(سجع الكُهَّان): كلامهم المزَوّق المتكلَّف [3]

ب ـ اصطلاحا:

بقدر ما تقاربت المعاني اللغوية لكلمة كهن، فإن كتب الأدب القديمة اختلفت وتشعبت في معناها الاصطلاحي، قال محمد بن حبيب: " ولا يكون كاهنا حتى يكون معه شيطان من الجنِّ" [4]

وقال الخطابي: " الكاهن هو الذي يدَّعي مطالعة علم الغيب، ويخبر الناس عن الكوائن... فمنهم من كان يزعم أن معه رئياً من الجنِّ، وتابعة تلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يدَّعي أنه يستدرك المور بفهمٍ أُعطِيَه، وكان منهم من يسمّى عرافا، وهو الذي يزعم أنَّه يعرف الأمور بمقدمات يستدل بها على موقها، .. ومنهم من كان يسمي المنجِّم كاهنا...، ومنهم من كان يدعو الطبيب كاهنا، وربما دعوه أيضا عرّافا...، فهذا غير داخل في النهي، وإنما هو مغالطة في الأسماء "[5]

وجاء في الكليات للكفوي، " الكاهن هو من يخبر بالأحوال الماضية، والعرّاف من يخبر بالأحوال المستقبلية " [6]

الكَهَنُوتُ: وظيفة الكاهن وهي كلمة دخيلة على العربية

و (رجالُ الكهنوت): رجالُ الدين عند اليهود والنَّصارى ونحوهم [7]

والاختلاف واضح في مسالة الإخبار عن الماضي او المستقبل، وفي اضرب الكهانة، وكادوا يتفقون على وجود تابع من الجن، بل إنه شرط لازم في التكهن.

2 ـ مكانة الكاهن في البيئة الجاهلية:

تختلف كهنة الجاهلية عن كهنة الأمم القديمة كمصر وبابل واليونان. فكهنة هذه الحضارات القديمة كانوا مرتبطين بالآلهة والمعابد وكانت الكهانة منصباً دينياً بحتاً. بينما لم تقتصر كهانة العرب على طبقة معينة ولا ارتبطت بإله خاص. وإنما كانت موهبة تظهر عشوائياً عند بعض الأشخاص الذين يمتلكون حظوة لدى السماء والجن والكائنات الغيبية. ولم تكن لتخلو قبيلة من بعضهم، فقد كانوا ضرورة للحكم في المسائل التي تصل إلى طريق مسدود وتحتاج إلى حل غيبي، ولتنبيه القوم من الأخطار المحدقة. ونظراً إلى تكرار تحقق ما يقوله الكاهن، كان العرب يثقون به ويلجؤون إليه في مختلف الشؤون.

ولهذا كان للكاهن في الجاهلية مكانة خاصة؛ فالإنسان بطبعه ولِع بمعرفة ما غاب عنه أكبر من اهتمامه بما بين يديه، وقلقه وتشوفه على إدراك المستقبل أعظم من معرفة الماضي. ولما لم يكن للعرب في جاهليتهم شريعة يحتكمون إليها، ولا رسالة ورسل تجيبهم عمّا يتطلعون إلى معرفته عظم فيهم أمر الكهانة،

وكثر فيهم الكهان، فالعلامة ابن خلدون يقول . "اعلم أن من خواص النفوس البشرية، التشوُّف إلى عواقب أمورهم، وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت، وخير وشر، سيّما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدنيا... والتطلُّع إلى هذا طبيعةٌ للبشرِ مجبولون عليها"[8]. ولهذا كثرت فئة الكهان في عرب الجاهلية، حتى كان لكل قبيلة كاهن أو أكثر، إلا أن ذلك لا يعني أن الكهان عندهم سواء ، فالجاحظ لما ذكر عزّى سلمة قال:" أكهن العرب وأسجعهم" بصيغة التفضيل، وفي خبر رؤيا ربيعة بن نصر: "فجمع كل من كان في اليمن من منجم وكاهن وساحر.. فقال له رجل منهم: فإن كنت تريد هذا فابعث إلى سطيح وشقٍّ؛ فليس أحد أعلم منهما"[9]

وكانت الكهانة فى العرب على ثلاثة أضرب:

الأول: يكون للإنسان وليّ من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء، وهذا القسم بطُل من حين بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم.

الثانى: أن يخبره بما يطرأ، أو يكون فى أقطار الأرض، وما خفي عنه مما قرب أو بعد، وهذا لا يبعد وجوده، ونفت المعتزلة وبعض المتكلمين هذين الضربين وأحالوهما (أي جعلاهما مستحيلين)

الثالث: المنجمون، وأغلبهم كاذب، ولذا شاع بين الناس هذا المثل: "كذب المنجمون حتى ولو صدقوا " وقد حرم الإسلام إتيان الكاهن لسؤاله عن الغيب لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد " [10]

3 ـ طرائق الكهانة:

والمقصود بها ما يستعين به الكاهن في التكهُّن وهي أشبه بالأدوات، وقد تنوعت هذه الأدوات عند الكهان العرب الجاهليين، وتداخلت على نحو ما تنوعت عند كهان الإغريق وغيرهم، منها:

ـ **النظر في النجوم**: كما في خبر السائب عند كسرى

ـ **النظر في مظاهر الطبيعة**: كما في خبر كاهن بني تميم بن مرّ

ـ **الرؤيا** : كما في طريفة عن خراب سد مأرب، ورؤيا سطيح في أول تكهنه.

ـ **الطرق** : قال ابن دريد(ت321هـ): والطرق: مصدر طرقت الكاهنة تطرق طرقان وهو ضربها بالحصى" وقال الجوهري: (ت 393هـ)" والطرق الضرب بالحصى ، وهو ضرب من التكهن.. قال لبيد:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرت الطير ما الله صانع

الخط: قال أبو إسحاق الحربي: هو أن يخط ثلاث خطط ثمَّ يضرب عليهن بشعير أو نوى ويقول بكذا ضرب من التكهن.

ـ **الزجر**: قال الجوهري: " والزجر : العيافة، وهو ضرب من التكهن" ، وإنما يكون الكاهن زاجرا، إذا تشاءم من الأمر زجر بالنَّهي عن المضي في تلك الحاجة.

تدوير القمقم: قالت العرب في أمثالها " على هذا دار القمقم" أي إلى هذا صار معنى الخبر.[11] وغيرها من الأدوات التي كان كهَّان الجاهلية يستعملونها في التكهن بالماضي والمستقبل.

4 ـ أشهر الكهنة:

اشتهر الكثيرون في الجاهلية نذكر جذيمة الأبرش، وكان من قدماء الكهنة في شبه الجزيرة العربية، اشتهر بالحكمة والرياسة والخطابة، وكان شاعرا. وأيضا جشم بن خيران كان كاهنا، ونسبت إليه وصية جمعت بين السجع والشعر، أوصى ابنَيه فيها بمكارم الأخلاق، وتكهن بما به تعزُّ همدان وغيرها من القبائل. سطيح الذئبي: ويقولون عنه إنه لم يكن فيه عظم سوى جمجمته؛ وأن وجهه كان في صدره؛ ولم يكن له عنق. ومنهم المأمور الحارثي: كاهن بني الحارث بن كعب.

ولم تكن الكهانة مقصورة على الرجال، بل كان هناك نساء كاهنات كذلك. ومن أشهرهن طريفة الكاهنة: وكانت باليمن وفاطمة الخثعمية: وكانت بمكة، والزرقاء بنت زهير، وزبراء كاهنة بني رئام، وسجاح التميمية التي قال عنها الثعالبي"أقبح امراة أكذبها؛ وذلك أنها كانت زمانا، تزعم أن رئِّها ورئِّي سطيح واحد، ثم جعلت ذلك الرئِّي ملكا، حتى ادعت النبوة بعد موت النَّبي صلى الله عليه وسلم ثم تجهزت في قومها على مسيلمة الكذاب، فقال قيس بن عاصم:

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الله ذُكرانا

يا لعنة الله والأقوام كلهم على سجاح ومَن بالإفك أغرانا

وكانت عودتها إلى الإسلام بعد مقتل مسيلمة، وعاشت إلى خلافة معاوية، وذكرها ابن حجر في الصحابيات. [12]

وبقي في الكهانة العربية ظاهرة طريفة؛ هي كهانة الأبناء والأحفاد بعد الآباء والأجداد، حتى لتغدو ضربا من الوراثة، أو من المصادفة؛ كما بين خالد بن سطيح وأبيه سطيح الغسانيَّين، وشهاب بن عبد القيس وعتبة بن الحارث بن شهاب اليربوعيَّين .. فهذا يدل على بقاء الكهانة في عَقِب من يمارسونها.

5 ـ سجع الكهان:

أ ـ السجع لغة:

جاء في معجم المعاني الجامع تعريفا لغويا للسجع هو على النحو الآتي:

السَّجع: (اسم) وهو صوت الإنسان في الكلام المسجوع بالفواصل، صوت الحمام المتردد بطريقة واحدة، صوت الناقة المتردد بطريقة واحدة.

سجَعَ: (فعل)

سجَعَ / سجَعَ بـ يَسجَع، سَجْعًا، فهو ساجِع وسَجيع، والمفعول مَسْجوع – للمتعدِّي

سَجَعَ الكَاتِبُ : أَتَى بِكَلاَمٍ مَنْثُورٍ مُقَفّىً، لَهُ فَوَاصِلُ

سَجَعَتِ الحَمَامَةُ: رَدَّدَتْ صَوْتَهَا عَلَى نَغْمَةٍ وَاحِدَةٍ، هَدَلَتْ، نَاحَتْ

سَجَعَ لَهُ : قَصَدَ

سَجَعَ فِي سَيْرِهِ : اِسْتَوَى واسْتَقَامَ لاَ يَمِيلُ عَنِ القَصْدِ

سَجَّعَ: (فعَّل)

سجَّعَ / سجَّعَ في يُسجِّع، تسجيعًا، فهو مُسجِّع، والمفعول مُسجَّع – للمتعدِّي

سَجَّعَ الكَاتِبُ: أَتَى بِكَلاَمٍ مَنْثورٍ لَهُ قَوافٍ وَفَواصِلُ

سَجَّعَتِ الحَمَامَةُ : رَدَّدَت صَوْتَهَا

سجَّع الكلامَ/ سجَّع في الكلامِ: سجَعه، أتى به منثورًا له فواصل كفواصِل الشِّعر مقفّى.[13]

ب ـ السَّجع اصطلاحا :

ـ هو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير، والفاصلة هي الكلمة الأخيرة من كل فقرة، وتسكن الفاصلة دائما في النثر للوقف .

ـ السجع أحد أنواع المحسنات اللفظية المستخدمة في علم البلاغة في اللغة العربية، وهو توافق الفاصلتينِ في فِقْرتين أو أكثر في الحرف الأخير، أو هو توافق أواخر فواصل الجمل [الكلمة الأخيرة في الفقرة]، ويكون في النثر فقط.

انتشر مصطلح "سجع الكهان". وكان يرتبط بكل كاهن "تابع" أو "ولي"، وهو جنّي يأتيه بالأخبار عن الغيبيات الماضية والحاضرة، أو بأخبار المستقبل وذلك من خلال استراقه السمع من السماء. لذا كان الكاهن في بعض الأحوال يقول لمن يلجأون إليه: "موعدنا الغد حتى ألقى تابعي وأسمع منه. ."

كان الكهان في أحاديثهم يعمدون غالبًا إلى سجع مصطنع، فيه غموض وإبهام، وكأنما كانوا يقصدون زيادة التأثير في السامعين، وإلهائهم عن التتبع لما يلقى إليهم من الأخبار التي كانت في منتهى الغرابة. ومما ما يروى أن حجرا أبو امرئ القيس رق لبني أسد، فبعث في أثرهم؛ فأقبلوا حتى إذا كان على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة فقال لبني أسد: "يا عبادي! قالوا: لبيك ربنا، قال: من الملك الأصهب، الغلّاب غير الأصهب، الغلَّاب غير المغَلَّب، في الإبل كأنها الرَبْرَب"

ويروى أن شقًّا وسطيحًا اتفقا على تعبير رؤيا رآها ربيعة بن نصر اللخمي أحد ملوك العرب، فأخبره سطيح بإغارة الحبشة على بلاد اليمن بسجع متكلف يبعث على التردد في تصديقه، إذ قال: "أحلف بما بين الحرتين من حنش، ليهبطن أرضكم الحبش، وليملكن ما بين أبين إلى جرش". وقال شق: "أحلف بين الحرتين من إنسان ليهبطن أرضكم السودان، وليملكن ما بين أبين إلى نجران".ويقال إن زبراء أنذرت قومها غارة عليهم، فقالت: "واللوح الخافق والليل الغاسق، والصبح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق، إن شجر الوادي ليأدوا ختلًا، ويحرق أنيابًا عصلا، وإن صخر الطود لينذر ثكلًا، ولا تجدون عنه معلًا."

ومن المؤكد أن الكهان كانوا يسجعون في كلامهم بمثل هذا السجع بدليل أنهم لما سمعوا القرآن ظنوه من هذا القبيل، فرد الله زعمهم بقوله تعالى: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُومنون (41)، وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ(42)} ، وغير ذلك من الآيات .

وظاهر من نماذج نثرهم أن الكهان كانوا يستعملون السجع المتكلف الغامض، وفي جمل قصيرة، وغير واضحة المعنى، لكي تتحير الأذهان في فهم المقصود منها وأغلب الظن، بل يكاد يكون من المؤكد أنهم لم يكونوا يدركون حقيقة ما يقولون فكانوا يأتون بالألفاظ ويرصفونها بعضها بجانب بعض بدون وعي

تام لمعانيها، ما دام السجع موجودا فيها، ويكتنفها الغموض والإبهام، مكتفين بالإيماء والتلميح، متخذين من حال مخاطبيهم النفسية ما يساعدهم على ذلك، كما يفعل ضاربو الرمل والحصى.

ولا يعتقد أن ما وصلنا عن سجع الكهان صحيح كله بل هو منحول في معظمه وقد جرى نحله في عصور متأخرة لأغراض سياسية أو اجتماعية أو دينية، ولكن لا ينبغي أن نسترسل بفكرة النحل والمنحول كي نغرق في استنتاج أن الجاهليين لم يعرفوا السجع بل المعتقد انهم عرفوه حقا، وقد روي ان رجلا أتى النبي (ص) فخاطبه بكلام مسجوع فقال له: اسجعا كسجع الكهان، وفي القرآن الكريم ما يدل على وجوده ولما خيل للجاهليين أن ثمة مشابهة بين الأسلوب القرآني وسجع الكهان فزعموا ان محمداً (ص) كاهن أو شاعر.

تعمد الكهان الإغراق في التعمية على مقولاتهم واضفاء صيغ رمزية غير مفهومة عليها تحتمل التأويل لو حدث عكس ماتنبؤوا به حتى تميزوا بلون خاص من القول المسجوع المترادف القصير العبارة ذي النبرة الخطابية، ولو صح قليل مما وصلنا من النصوص المنسوبة اليهم لتبين انهم كانوا يعنون في رموزهم بالكواكب والرياح والغيم والبرق واستخدموها أحيانا في القَسَم فمنهم من كان يعبد الكواكب السيارة ومنهم من كان يعبد الشجر أو الطير، فكان القسَم بهذه الأشياء يمنح النص نوعا من التوكيد أو الموثوقية أو الرُّعب . قال عزى سلمة الذي وصفه الجاحظ بانه أشجع الكهان : والأرض والسماء، والعُقَاب والصَّقْعاء، واقعة بِبَقعاء، لقد نَفَّر المجدُ بني العُشَراء للمجد والثَّناء.

وقالت احدى الكاهنات تحذر قومها من غارة قادمة عليهم : واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمزْن الوادق، إنّ شجر الوادي ليأدو خَتْلاً، ويحرق أنياباً عُصْلاً. وإن صخر الطَّوْد ليُنذر ثُكْلاً، لا تجدون عنه مَعْلىً.

وهكذا جاء هذا السجع نوعا من الأدب غير المفهوم وغير المترابط يحمل ايجاز العبارة ورمزية المعنى ولا يمكن الاطمئنان الى صحة ماورد الينا منه، ولكنه على العموم لم يصمد أمام الشعر ولم يستطع منافسته في ضمائر الناس.

ج ـ من أسباب نحل سجع الكهان:

إن كثيرا من سجع الكهان منحول فمن يقرأ نصوصهم قراءة متأنية ليجد أن النحلة والوضّاعين فيما بعد قلدوا النص القرآني وصاغوا عبارات بعينها نسبوها الى سجع الكهان دافعهم في ذلك اثبات أن

القرآن ليس كتاب الله وان محمدا(ص) قلد الكهان عندما صاغ عبارات القرآن قد انتشر مثل هذا النوع من النحل في فترة النزاع العربي الشعوبي حيث انتشر الزنادقة وعبدة النار وآخرون مدفوعين بحقد أسود على الإسلام وأهله، ولعلنا نلمح الكثير من مبشري الديانات الأخرى يعودون إلى نفس النصوص المنحولة محاولين خلق نوع من المشابهة والمقابلة بين السجع الجاهلي المشكوك بأمره وبين الآيات القرآنية

ويبدو الأثر القرآني واضحا على كثير من نصوص السجع التي وصلتنا وهو ما يدل على اقتباس الوضّاعين من القرآن لاختراع العبارات المنسوبة الى الكهان أما من الناحية الفنية فالتقليد مشوه ولا يلحق بغبار بلاغة القرآن، وإن ناقدا يمتلك قليلا من البصيرة والعين الناقدة يستطيع اكتشاف الأمر، وفيما يلي بعض الأمثلة على ذلك:

قال عوف بن ربيعة في وصف يوم البعث:

"يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون"

وقال (شق بن صعب) في وصف ذلك اليوم:

"يوم تجزى فيه الولايات، يدعى فيه من السماء بدعوات، يسمع منها الأحياء والأموات، ويجمع فيه الناس للميقات، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات"

ويقول أيضا :

"ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، أن ما أنبئك به لحق، ما فيه أمض. "

وجاء في حديث الكاهنة زبراء:

"واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمزْن الوادق، إن شجر الوادي ليَأْدُو خَتْلاً، ويَخْرُق أنيابًا عُصْلاً، وإن صخر الطَّوْد لَيُنْذِر ثُكْلاً، لا تجدون عنه مَعْلاً. "

وهنا الأثر القرآني واضح لاريب فيه، فمن أين لهم معرفة بيوم العقاب والحساب والنشور والبعث والسماء المرفوعة، ولا يدل ذلك إلا على تأثر الوضّاعين الحاقدين على الاسلام بالنص القرآني واختراعهم لهذه النصوص لإثبات أن القرآن تقليد لسجع الكهان، وأن محمدا ليس صاحب رسالة، ويعتقد أن هؤلاء قد نشطوا في العصر العباسي الأول حيث بلغ التدوين والوراقة مبلغا من التطور كان يسمح بنسخ النصوص المنحولة ونشرها بين الناس.

أما أن القرآن يستخدم السجع في عباراته فهذا لا يعيب القرآن ولا يقدم دليلا أنه تقليد لسجع الكهان فلم يقتصر استخدام السجع على الكهان وحدهم بل عمد خطباء العصر الجاهلي ـ وحتى الشعراء منهم ـ الى الكلام المسجوع لما فيه من الإيجاز واصابة المعنى والتأثير في نفس المخاطب، والقرآن نزل بلسان عربي مبين بلغة يفهمها أهل العصر وقريبة الى قلوبهم.

الهوامش:

1ـ الخليل بن أحمد الفراهدي، كتاب العين، دار ومكتبة الهلال ، مصر، ج 3، ص 379

2ـ ابن منظور لسان العرب، مادة (ك ه ن)

3ـ المعجم الوسيط-مجمع اللغة العربية بالقاهرة-صدر: 1379هـ/1960م مادة (كهن)

4ـ أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي البغدادي ،المحبّر، جمعية دائرة المعارف العثمانية، 1943 ص 390

5ـ الخطابي، معالم السنن، دار الحديث، القاهرة ج 4،ص 229/228

6ـ للتفصيل أكثر ، راجع أسجاع الكهان الجاهليين وأشعارهم، جمع وتحقيق ياسين عبدالله جمول، جامعة دمشق، 2012

7ـ المعجم الوسيط، مادة (كهن)

8ـ ابن خلدون المقدمة، شركة دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، د ت، ص 365

9ـ راجع، أسجاع الكهان الجاهليين وأشعارهم، ص35

10ـ راجع محمد بن إبراهيم الشيباني، الكهنة.. اختلف الأولون حول أسبابهم وادعاءاتهم، رابط المجلة https://alqabas.com/article/164117

11ـ للاستزادة راجع، أسجاع الكهان الجاهليين وأشعارهم، ص18/ 20

12ـ المرجع نفسه، ص149

13ـ معجم المعاني الجامع، نسخة إلكترونية

أدب الوصايا في النثر العربي القديم

الوصايا من الفنون النثرية التي حرصت مصادر الأدب العربي على أن تفسح لها مساحة واسعة في صفحاتها، وأن تخصص لها أبوابا مستقلة تعبيرا منها عن الأهمية البالغة التي تتمتع بها، فهي زبدة المخاض العسير، وخلاصة التجارب الطويلة، يصوغها الحكماء من هذه الأمة أقوالا، ليقدموها لمن أراد الانتفاع منها، فيأخذوا الخبرة وقد كُفوا معاناة مكابدتها .

1ـ التعريف اللغوي للوصية :

جاء في لسان العرب : وصي أوصى الرجل ووصاه: عهد إليه، قال رؤبة :وصاني العجاج فيما وصني أراد: فيما وصاني، فحذف اللام للقافية. وأوصيت له بشيء وأوصيت إليه إذا جعلته وصيك. وأوصيته ووصيته إيصاء وتوصية، وتواصى القوم أي أوصى بعضهم بعضا. وفي الحديث: استوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عندكم عوان...

قال الأصمعي: وصى الشيء يصي إذا اتصل، ووصاه غيره يصيه: وصله .

جاء لفظ "وصي" أو "الوصية" أو "الوصاة" في أشعار الجاهليين وأنثارهم في مواضع عديدة، ومناسبات مختلفة، بمعنى تناقل العِبَر، وتوجيه الدروس، والنصح والإفادة من الماضي وذوي الخبرة، يقول عنترة بن شداد:

ولقد حفظتُ وصاةَ عمّي بالضحى *** إذ تقلّص الشفتان عن وضَح الفمِّ

وأيضا ما جاء على لسان عبد قيس بن خفاف البرجمي الذي يقول:

أوصيكَ إيصاء امرئٍ لك ناصح *** طبنٍ بريبِ الدهر غير مغفّلِ[1]

2 ـ اصطلاحا:

الوصية بمعنى النصح والإرشاد والتوجيه، وهي قول بليغ مؤثر، ويتضمن حثًّا على سلوك طيب نافع، حبًا فيمن توجه إليه الوصية، ورغبة في رفعة شأنه وجلب الخير له. وعادة تكون من أولياء الأمور وبخاصة الأب والأم لأبنائهما عند حلول الشدائد، أو حدوث الأزمات أو الإحساس بدنو الفراق، وهي نتيجة الخبرة الطويلة والملاحظة الدقيقة، والعقل الواعي والتفكير السليم ويدفع إليها المودة الصادقة والحب العميق[2]

ويقصد من الوصايا الحِكَم والأمثال، فتعرف على أنها : "ضرب من الأدب النثري الذي يقترب من الحكمة في منحاه، يتوجه به الرئيس أو القائد لقومه ساعة يرى ضرورة لذلك، أو الأب لأولاده عندما يحس أنه مفارقهم، ثم لم تلبث هذه الوصايا أن تصبح لديهم دستورًا يهتدون بهديه...وتمتزج الأمثال بالحكم والوصايا فلا يمكن تمييزها، بل إن الحِكَم والوصايا تعد من منابع الأمثال ومصادرها التي تتكون منها[3].

ويمكن أن تعد الوصية خلاصة فكرية يكتسبها المرء من تجاربه في بيئته ومجتمعه، وهي تشبه المثل والحكمة من هذه الناحية، وفي الغالب يرتبط استعمال الوصية بإرادة الخير والتوجيه إلى ما هو واجب من فضائل النفس والسلوك.

3 ـ الوصية في العصر الجاهلي:

إن الأدب المنحدر إلينا من الجاهلية إنما يدل على ثقافة واسعة وخبرة نادرة ووعي بالغ لكل موقف من مواقف الحياة، ولهذا الأدب طوابعه المميزة وسماته المخصوصة التي قلما نجد مثيلها في الآداب العالمية الأخرى، ولعل أدب الوصايا في النثر الجاهلي خير شاهد على أن العرب أبدعوا فيه إبداعا تجلّى في قوالب أدبية متنوعة ما بين الشعر والنثر، ولم يبرع فيه الرجال دون النساء، بل اشترك فيه الجميع، وتمتاز الوصايا في العصر الجاهلي بجمالها ، وتناسب جملها ورقتها. وعلى قلة ما وصلنا من هذا الفن، إلا أنه يتنوع من حيث المضامين، فبعضه موجه إلى الأبناء والبنات، وبعضه الآخر موجه إلى أفراد من القبيلة. وعليه تقسم الوصايا إلى نوعين:

1. وصايا اجتماعيةَ:

لقد ارتبطت الوصية ارتباطا شديدا بالإنسان في العصر الجاهلي عبر حقبه المتتالية، وكان لها الأثر الكبير على مختلف توجهات مجتمعه، ولأهميتها واعتبارها فقد اكتسبت صفة الأمانة التي يجب الحفاظ عليها[4] ومدارستها لاستكناه ما تحويه من مظاهر الحياة الاجتماعية واخلاق العرب وسلوكياتهم في العصر الجاهلي .

وتتعدد مضامين الوصايا الاجتماعية في هذا العصر، فمنها ما يتعلق بالزواج وتسمى وصايا الهداء، ومنها ما يتعلق بالمال، والصداقة، والعناية بالخيل وإكرامها، ومكارم الأخلاق كتهذيب اللسان، وتربية النفس، والحث على الصدق، والبذل والجود.. ومن شواهدها من الرجال، تلك التي تركها شيوخ محنكون أملوها على أبنائهم أو أقوامهم مثلما هو الحال مع ذي الإصبع العدواني – لما احتضر — دعا ابنَه أسيد

وقال: يا بُنَيَّ، إنَّ أباكَ قد فَنِيَ وهو حَيٌّ، وعاشَ حتى سَئِمَ العيشَ، وإنِّي مُوْصِيكَ بِمَا إنْ حَفِظْتَهُ بَلَغْتَ في قومِكَ ما بَلَغْتُهُ، فاحْفَظْ عَنِّي:

أَلِنْ جَانِبَكَ لِقَومِكَ يُحِبُّوكَ، وتَوَاضَعْ لهم يَرْفَعُوكَ، وابْسُطْ لهم وَجْهَك يُطِيْعُوكَ، ولا تَسْتَأْثِرْ عليهم بِشَيءٍ يُسَوِّدُوكَ، وأَكْرِمْ صِغَارَهم كما تُكْرِمُ كِبَارَهم يُكْرِمْكَ كِبَارُهم، ويَكْبُرُ على مَوَدَّتِك صِغَارُهُم، واسْمَحْ بِمَالِكَ، وَاحْمِ حَرِيْمَكَ، وأَعْزِزْ جَارَكَ، وأَعِنْ مَن اسْتَعَانَ بكَ، وَأَكْرِمْ ضَيْفَكَ، وأَسْرِعِ النَّهْضَةَ في الصَّرِيخِ؛ فإِنَّ لكَ أَجَلاً لا يَعْدُوكَ، وصُنْ وَجْهَكَ عن مَسْأَلَةِ أَحَدٍ شَيْئًا فَبِذَلِكَ يَتِمُّ سُؤْدَدُكَ" [5]

كما اشتهرت بعض وصايا نساء العرب في عصر الجاهلية، وأضحت من عيون التراث العربي منذ أكثر من ألف وخمسمئة عام وإلى يومنا هذا، منها وصية أُمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس وقت زواجها من ملك كندة الحارث بن عمرو جدّ الشاعر الجاهلي الشهير امرئ القيس، فقد تميزت بالوضوح والجزالة والحكمة والنصح النافع للأبناء في كل وقت، وهي وصية جامعة مفيدة لكل مُقبلة على الزواج حرصت على تبيان مجالات الرضا، والنظافة ومعانيها وأهميتها، ورعاية الزوج وحقوقه، ورعاية الأبناء والبيت.تقول أُمامة في وصيتها لابنتها:

" أي بنية، إن الوصية لو تُرِكَت لفضل أدب، تُرِكَت لذلك منك؛ ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل...أي بُنية، إنكِ فارقتِ الجو الذي منه خرجت، وخلّفتِ العُش الذي فيه درجتِ، إلى وكرٍ لم تعرفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فأصبح بملكِه عليك رقيبا ومليكا؛ فكوني له أمَة يكن لك عبدا وشيكا....قد لموضع أنفه؛ فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح...". [6]

2ـ وصايا سياسية

وتكون بين الراعي والرعية، والدعوة إلى الحرب، والدعوة إلى السلم والتحذير من التنازع. والطابع العام للوصايا هو الأسلوب المرسل، الذي يترك فيه الموصى نفسه على سجيتها، من دون تنميق أو زخرفة، مؤثراً وضوح العبارات، ورشاقة التراكيب، وقصر الجمل بما يحقق المناسبة بين المعنى واللفظ وطبيعة المقام الذي تقال فيه الوصية. ومن أمثلة ذلك وصية عامر بن الظرب لقومه، التي يقول فيها: "يا معشر عدوان: لا تشمتوا بالذلة، ولا تفرحوا بالعزة، فبكل عيش يعيش الفقير مع الغني، ومن يَرَ يومًا يُرَ به، وأعدوا لكل أمر جوابه، إن مع السفاهة الندم، والعقوبة نكال، وفيها ذمامة، ولليد العليا العاقبة، وإذا شئت وجدت

مثلك، إن عليك كما أن لك، وللكثرة الرعب، وللصبر الغلبة، ومن طلب شيئا وجده، وإن لم يجده أوشك أن يقع قريبا منه"[7]

3 ـ الوصية بعد مجيء الإسلام:

حين جاء الإسلام، كان التركيز على الوصية من جانبها الديني والتشريعي والأخلاقي، فقد جاء جذر "وصي" في القرآن الكريم أكثر من عشرة مواضع، تنوعت ما بين وصايا الله لعباده من حيث الإيمان والاعتقاد وتقسيم التركات ومعاملة الوالدين بالحسنى، والأنبياء لأتباعهم وأبنائهم، وكلها في إطار أخلاقي وتشريعي وتوجيهي بحت، يقول تعالى: <<إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَأَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُون (132)>>[8]

ولم تقتصر الوصايا على القرآن الكريم وحده، بل في كلام النبي –صلى الله عليه وسلم– أيضا كمٌّ هائل من الوصايا الخاصّة والعامة المنبثقة من مَعين الوحي، منها ما كان لأزواجه وأصحابه ولعموم المسلمين، وما كان في رسائله إلى الملوك والأقوام الأخرى، وقادة سراياه، وكانت وصيته في خطبة الوداع من أشهر وأجلى وصاياه إذ وُجِّهت لعموم الصحابة والمسلمين حتى قيام الساعة، وقد جاء فيها:

"أيها الناسُ، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا. أيها الناسُ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحُرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تُظلمون"..

4 ـ في عهد الصحابة:

وسار الصحابة من بعده –صلى الله عليه وسلم– ينتهجون خُطاه في التوصية والوصية للمسلمين عامة، ولأولادهم وذويهم خاصة، وقد أوصى أبو بكر –رضي الله عنه– حين حضره الموت عمر بن الخطاب قائلا: "إني مُستخلفك وموصيك بتقوى الله يا عمر، إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل، واعلم أنه لا يقبل نافلة حتى تُؤدَّى الفريضة، وأنه إنما ثقُلت موازين مَن ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق."

ـ في العهد الأموي والعباسي:

وسار الأمويون والعباسيون من بعد عصر النبوة والخلافة الراشدة في الوصية لخلفائهم والقادمين لتولِّي مقاليد الأمور من بعدهم، وصية تهدف إلى عز الدولة، والسياسة الراشدة الحكيمة، والتعريف بموازين القوى بين العرب والفرس وغيرهم من الأعراق والملل، وكيفية التعاطي مع ذلك كله باللين والرشد، أو بالشدة والعسف إن اقتضى الأمر.

ولعل وصية الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي لابنه عبد الله المهدي تُعَدُّ من أشهر وصايا الخلفاء العباسيين لأبنائهم، وقد جاء فيها: "يا أبا عبد الله... اتق الله فيما أعهدُ إليك من أمور المسلمين بعدي، يجعل لك فيما كرَبك وحزنك مخرجا، ويرزقك السلامة وحُسن العاقبة من حيث لا تحتسب، احفظ يا بني محمدا صلى الله عليه وسلم في أمته، يحفظ الله عليك أمورك، وإياك والدم الحرام فإنه حوب عند الله عظيم، وعار في الدنيا لازم مقيم... وأعد الرجال والكراع والجند ما استطعت، وإياك وتأخير عمل اليوم إلى غدٍ، فتتدارك عليك الأمور وتضيع."...

وإذا كانت الوصية قد دخلت ميدان السياسة، وأضابير الحكم، والغرف المغلقة، وصارت لونا على الأداء السياسي، بل وُجِد لون من ألوان التصنيف في هذا المضمار سُمِّي بـ "الآداب السلطانية" أو "مرايا الأمراء" ظهر منذ عصر السلاجقة والأيوبيين والمماليك والعثمانيين، فيه أنار الفقيهُ عقلَ السلطان ووعيه، وأرشده إلى ما يجب أن يلزمه في تدبير الملك وشؤون السياسة من الأخلاق والحيل والحكم، فإن الوصية أيضا ظلّت ترتقي في مضمار الأدب، وبين العلماء والفقهاء والصوفية والشعراء.

واشتهرت في أبواب هذه العلوم وصايا العلماء لأبنائهم وتلامذتهم، يتناقلها الجيل عن الذي يسبقه، ومن هذه الوصايا انبثقت منهجيات العلوم، لا سيما علم مصطلح الحديث، وتحمل الرواية، وتقعدت القواعد التي يجب أن ينتهجها طالب العلم في مضمار علمه، ليصل إلى درجة الرسوخ والترقي، ولتستمر دائرة العلم وقواعده وأخلاقياته دون تحيُّز أو تدليس.

5 ـ خصائص الوصايا:

تكشف الوصية عن أن العرب في العصور القديمة كانوا يعنون بتنميق أسلوبهم في الوصايا حتى يكون له وقع جميل، ويكون هذا عاملاً مساعداً على الإصغاء إلى الوصية ثم التأثر بها، ونرى الوصية تلتزم السجع، وتعنى بالازدواج، والطباق، والجناس أما السجع فواضح في الوصية.

6 ـ أجزاء الوصية:

أ– المقدمة: وفيها تمهيد وتهيئة لقبولها.

ب– الموضوع: وفيه عرض للأفكار في وضوح واقناع هادئ.

ج– الخاتمة: وفيها إجمال موجز لهدف الوصية.

7 ـ خصائص أسلوب الوصية:

أ– وضوح الألفاظ وقصر الجمل.

ب– الإطناب بالتكرار والترادف والتعليل.

ج– تنوع الاسلوب بين الخبر والإنشاء.

د– الإقناع بترتيب الأفكار وتفصيلها وبيان أسبابها.

هـ– الإيقاع الموسيقي الجميل

و ـ اشتمالها على كثير من الحكم.

زـ سهولة اللفظ، ووضوح الفكرة.

8 ـ الفرق بين الوصية وفن الخطابة:

لا شك أن هناك تقاربا وتشابها بين الوصية والخُطبة؛ مما جعل بعض الأدباء لا يذكر فروقًا واضحة بينهما! فيرى محمود الألوسي أن الخطبة والوصية متقاربتان في المفهوم، ويرى الدكتور محمد خفاجي أن الوصية لون من ألوان الخطابة، بل يرى الدكتور عمر فروخ أن الوصايا من باب الخطب، ويلحقها الدكتور مصطفى السيوفي بالخطب.

إلا أن هناك فروقا تفصل بينهما لخصوصية كل واحد منهما بميزات تميزها عن الأخرى وتتحدد على النحو التالي:

أن الخطبة: هي فن مخاطبة الجماهير لاستمالتهم واقناعهم.

أما الوصية: فهي قول حكيم لإنسان مجرب يوصي به من يحب لينتفع به في حياته.

الوصايا تميل إلى الهدوء والعقلانية أما الخطبة فتميل إلى التهويل والإثارة العاطفية

الوصايا تكون محصورة بين فردين غالبا لأنها قول حكيم لإنسان مجرب يوصي به من يحب لينتفع به في حياته.أما الخطبة فتكون أمام الجمهور للإقناع والإمتاع، فالخطبة هي فن مخاطبة الجماهير لاستمالتهم وإقناعهم.

نماذج من وصايا العرب:[9]

وصية زهير بن جناب الكلبي:

أوصى زهير بن جناب الكلبي بنيه قال: "يا بني قد كبرت سني وبلغت حرضاً من دهري، فأحكمتني التجارب والأمور تجربة واختبار. فاحفظوا عني ما أقول وعوه إياكم والخور عند المصائب، والتواكل عند النوائب، فإن ذلك داعية للغم وشماتة للعدو، وسوء الظن بالرب، وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمنين، ومنها ساخرين، فإنه ما سخر قوم قط إلا ابتلوا، ولكن توقعوها، فإن الإنسان في الدنيا غرض تعاوره الرماة، فمقصر دونه ومجاوز لموضعه، وواقع عن يمينه وشماله ثم لا بد أن يصيبه."

وصية عمرو بن كلثوم:

جمع عمرو بن كلثوم بنيه حينما حضرته الوفاة، وكان قد عاش مائة وخمسين سنة، فقال:

"يا بَنِيَّ، قَدْ بَلغْتُ منْ العُمَرِ ما لمْ يَبْلغْهُ أحدٌ منْ آبائي، ولا بدَّ أنْ يَنْزلَ بي ما نَزلَ بهم منَ المَوْتِ. وإني واللهِ ما عيّرتُ أحداً بشيءٍ إلا عُيِّرتُ بمثْلهِ، إنْ كانَ حقاً فَحقا، وإن كانَ بَاطلاً فبَاطلا، ومنْ سَبَّ سُبَّ. فكُفُّوا عنِ الشتّمِ، فإنّهُ أسْلمُ لَكمْ، وأحسِنوا جِوارَكمْ، يحسنْ ثناؤُكم، وإذا حُدِّثْتم فَعوا، وإذا حَدثْتم فأوْجِزوا، فإن مع الإكثارِ تكونُ الأهْذار. أشجعُ القَومِ العَطوفُ عندَ الكرِّ، كَما أن أكرمَ المنايا القتلُ، ولا خيرَ فيمن لا رَويّة لهُ عندَ الغضَبِ، ولا منْ إذا عُوتبَ لم يُعْتِبْ، ولا تَتزوجوا في حيِّكم، فإنّه يودي إلى قُبْحِ البُغْضِ."

وصية ذو الإصبع العدواني:

وأوصى ذو الإصبع العدواني، لما حضرته الوفاة، ابنه فقال :"يا بُني، إن أباكَ قد فَنِيَ وهوَ حيٌّ، وعاشَ حتَى سَئِمَ العَيشَ. وإنِّي مُوصيكَ بما إنْ حفظْته بَلغتَ في قَوْمكَ ما بَلغتُه: ألِنْ جانبَك لقَومك يُحبُّوكَ، وتَواضعْ لهُمْ يرفَعوكَ، وابسُطْ وجْهَكَ يُطيعوكَ، ولا تستأثْر علَيهمْ بشيءٍ يسوِّدوكَ، وأكْرِم صغارَهُمْ كَما تُكْرمْ كبارَهُمْ، يُكْرمكَ كبارهُم، ويَكبُرْ على مودَّتكَ صِغارَهُمْ، واسْمحْ بمالكَ، وأعززْ جارَكَ، وأعنْ من اسْتعانَ بِكَ، وأكرم ضَيفكَ، وصُنْ وجهكَ، عنْ مسألِة أحدٍ شيئاً، فَبذلِكَ يَتمُّ سُؤْدُدُكَ."

وصية أعرابية لولدها:

أوصت أعرابية ولدها قالت: "أي بني إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينة فتفرق بين المحبين، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ عرضاً. وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام، وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كَلَمَته حتى يهي ما اشتد من قوته. وإياك والجود بدينك والبخل بمالك. وإذا هززت فاهزز كريماً يلن لهزتك، ولا تهزز لئيماً فإن الصخر لا ينفجر ماؤها. ومثل لنفسك مثال استحسنت من غيرك فاعمل به، وما استقبحت فاجتنبه، فإن المرء لا يرى عيب نفسه. ومن كانت مودته بشر وخالف ذلك منه فعله، كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها، والغد أقبح ما تأمل به الناس بينهم".

الهوامش:

1. ابن منظور، لسان العرب، مادة (و ص ي)
2. علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، دار الجيل بيروت، ص 268
3. نوري القيسي وآخرون، تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام، كلية الآداب، بغداد، العراق، ط2، 2000، ص439 و442
4. محمد مرتاض، قراءة جديدة للنثر العربي القديم من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي، ديوان المطبوعات الجامعية، 2012، ص 35
5. السيد أحمد الهاشميّ، جواهر الأدب ج 1 – المكتبة التجارية الكبرى، 2015 ص 188
6. علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، ص 268
7. المرجع نفسه، الصفحة نفسها
8. سورة البقرة، الآية 132/131
9. راجع جمهرة وصايا العرب، وصايا العصر الجاهلي، تحقيق: محمد نايف الدليمي، دار النضال، بيروت، 1991

فن الخطابة في العصر الجاهلي

مقدمة :

الخطابة فن قولي نثري عرف منذ العصر الجاهلي الذي بلغت فيه منزلة عظيمة لحاجة العرب إليها في جل مناسباتهم السياسية والاجتماعية، حيث كانت سلاحا حادا يبري العربي من أشجار تأثيرها نبالا يرمي بها من يشاء وما يشاء . وعلى الرغم من أنَّها لم تكن لتطمع لنيل الحظوة التي استأثر بها الشعر إلا أنه كان لوجودها دواعي كثيرة؛ منها كثرة الخصومات وما تنتهي إليه من حرب وسلم ووجود الأسواق يلتقون فيها فيتفاخرون ويتباهون بأنسابهم وأحسابهم.. وفي هذه المحاضرة سنلم بكل ما يتعلق بفن الخطابة في العصر الجاهلي.

1 ـ الخطابة لغة:

جاء في لسان العرب: خطب : الخطب : الشأن أو الأمر ، صغر أو عظم، وقيل: هو سبب الأمر. يقال: ما خطبك؟ أي : ما أمرك ؟ وتقول: هذا خطب جليل، وخطب يسير . والخطب : الأمر الذي تقع فيه المخاطبة ، والشأن والحال، ومنه قولهم : جل الخطب أي : عظم الأمر والشأن . وفي حديث عمر ، وقد أفطروا في يوم غيم من رمضان ، فقال : الخطب يسير . وفي التنزيل العزيز : "قال فَمَا خَطْبُكُم أيُّها المرْسلُون" ، وجمعه خطوب، فأما قول الأخطل:

كَلَمْعِ أيْدي مثَاكيلَ مَسْلَبَةٍ يَنْدُبْنَ ضَرسَ بناتِ الدَّهْر والخُطَب

إنما أراد الخطوب، فحذف تخفيفا.[1]

2 ـ اصطلاحا:

أكثر ما عرفت به الخطابة أنها فن مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائية تشتمل على الإقناع والاستمالة.

ويمكن استخلاص **خصائص فن الخطابة** من هذا التعريف فتتحدد في ما يلي:

ـ أن يكون الحديث مخاطبة جمهور من الناس، فإذا كان الشخص يتحدث إلى فرد أو اثنين من الناس فإنه لا يحتاج عادة إلى لهجة خطابية، بل يكفيه أن يقدم فكرته بهدوء وبطريقة مألوفة.

ـ أن يكون بطريقة إلقائية، مما يستوجب توفر الخطيب على جهارة الصوت، وتكييفه باختلاف نبراته، وتجسيم المعاني التي تتضمنها الخطبة، وإبداء التأثر بها، ومن مكملات هذه الطريقة أن تصحبها إشارات باليد أو بغير اليد ، كما يبدي الخطيب انفعالاته بما يقول. فكل ذلك يثير السامعين ويوجه عواطفهم نحوه ويجعلهم أكثر استجابة لرأيه.

ـ أن يكون الحديث مقنعا بحيث يشتمل على أدلة وبراهين تثبت صحة الفكرة التي يدعو إليها الخطيب .

ـ أن يتوفر في الخطبة عنصر الاستمالة، وهذا يعني توجيه عواطف السامعين واستجابتهم للرأي الذي تدعو إليه الخطبة[2].

3 ـ دواعي الخطابة في العصر الجاهلي:

اهتم العرب في العصر الجاهلي بفن الخطابة، لما كان لها من ضرورة اجتماعية، رغم أن أغلبها ضاع ولم يبق منها إلا خطبا وجيزة كانت تلقى ارتجالًا في مختلف المحافل والمناسبات. وتجلى اهتمامهم فيها باستعمال السجع، واشتهر العرب في العصر الجاهلي بدفاعهم عن أنفسهم عن طريق المفاخرة والاستعراض بما كانوا يشتهرون به، وهو الفصاحة والبيان، فقد كانت الخطابة عند العرب صفة فطرية في طبيعتهم، وكانوا يقومون باستخدام الخطابة في حواراتهم ومجادلاتهم الشديدة حتى في حروبهم، وكانت الخطابة أسلوبا لديهم يستخدمونه للدفاع عن أعراضهم وكرامتهم بل وعن أموالهم. وبالرغم من أن العرب في الجاهلية قد اهتموا بالخطابة بشكل كبير، إلا أن اعتناءهم كان بالشعر أكبر، ولعل ذلك هو أحد الأسباب المعنية بعدم وصول أخبار خطبهم وخطبائهم، فقد أصبحت أخبار الخطابة في العصر الجاهلي تنتقل وتشتهر عندما تفوقت مكانتها لمكانة أعلى من مكانة الشعر عندهم، وذلك لأن الشعر بات وسيلة يتعاطاها السفهاء والعامة من القوم، بالإضافة لاستخدامه في الطعن والخوض في الأعراض، الأمر الذي أدى لعلو مكانة الخطابة بالنسبة للشعر، وكان لكل قبيلة خطيب، واشتهر أشراف القبائل في العرب بالخطابة، وكثر استخدامها للحث على الإصلاح والقتال وفي الوفادة على الملوك والأمراء بقصد الاستمالة والتأثير في النفوس.

4 ـ قيمتها:

على الرغم من ضياع الكثير من الخطب الجاهلية وأن ما بقي من مقتطفات مبثوثة في كتب الأمهات يعد تأريخًا لحاضرهم وماضيهم، وعصارة التجربة الفكرية للرجل العربي، لكنه لم يرق لمنزلة الشعر ومكانته العليا عند العرب لأنه هو من يحمل اسم القبيلة في الأفق بين الناس.

لذا يقول أبو عمر بن العلاء: "كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم".. فيصف حال العرب في التعامل بين الشاعر والخطيب.

وللجاحظ رأي أيضًا على هذا الموضوع فقال أن الشاعر أرفع منزلة عند العرب من الخطيب لكن بعدما كثر الشعراء وكثُر شعرهم أصبح الخطيب المفوه أعلى منزلة عند العرب، فكما يرى الجاحظ في كتابه ''البيان والتبين'' أن السبب الوحيد لأن يكون الخطيب أعلى منزلة من الشاعر هو أن الشعراء أصبح عددهم كبير وأصبحت المعاني مكررة ويذكرنا هنا قول عنترة بن شداد:

هَل غادَرَ الشُعَراءُ مِن مُتَرَدَّمِ أَم هَل عَرَفتَ الدارَ بَعدَ تَوَهُّمِ

فأصبحت الخطب بين ليلة وضحاها من لوازم السادة ومن يتكلم بلسانهم في كل المحافل العظيمة للعرب والتجمعات الرسمية، فكانت تحلى بالحكم وتقترن بمعانٍ سامية مثل الشجاعة والكرم والفروسية، ونجد ذلك في المراثي ومدح القادة.

كما أن أتساع المساحة الوظيفية للخطابة هي ما أهلتها لمنزلة الصدارة. فبجانب الأغراض القديمة المعتادة كان الخطيب ينافس الشاعر في الفخر والهجاء. بجانب تفرد الخطباء بالدعوة إلى السلم ومحاولة إخماد نيران الحروب في الخصومات بين القبائل المتناحرة، بينما كانت أغلب دعوى الشعراء تنحصر في إشعال نيران الحرب والفتن..إلخ

5 ـ صفات الخطيب في العصر الجاهلي:

كان للخطباء في الجاهلية سمات وعادات استمرت إلى ما بعد ظهور الإسلام نذكر من بينها:

ـ أن العربي كان يقف على شيء مرتفع أو نشز من الأرض، ليشرف الخطيب على مستمعيه، فيروا شخصه حين يسمعون كلامه، وليستطيع الخطيب أن يضم إلى كلامه الخطابي إشارات اليد وانفعالات

الوجه وحركات الجسم فيكون ذلك أعون على التأثير والاستمالة. وفي المواقف الحاشدة، والمجامع الكبيرة يخطبون على رواحلهم .

وفي الحالات العادية يكون الخطيب واقفا، إلا في الإملاك فإنه يكون جالسا ذلك لعدم كثرة السامعين، ولأن المراد من الخطبة هو الإخبار بالزواج وتزكيته، فليس هناك ضرورة للإقناع والاستمالة [3]

كذلك كان الخطيب الجاهلي يلف ويكور عمامته، وتكون بيضاء اللون أو ملونة إلا في حالات الثأر فإنه يختار لها اللون الأسود. وكان من عادة العرب أن يعتمد الخطيب على شيء في يده كأن تكون عصا أو مخصرة أو قناة [4] وقد يستعمل ما يعتمد عليه منها للإشارة للإيحاء وقوة التأثير في السامعين، وهو كذلك مما يستأنس الخطيب ويحول بينه وبين العبث بيده.

كما يستحسن في الخطيب أن يكون جميل المنظر نظيف الثياب، جهير الصوت، هادئا في عباراته، وربما فضلوا أن يكون كريم الأصل شريف النفس لأن ذلك يجعله أكثر تأثيرا، ويجعل السامعين أكثر قبولا لكلامه. كما آثروا أن يكون مقتنعا بكلامه عاملا به، ومعظم هذه الصفات مما أيده الإسلام، وقد قال علي بن أبي طالب : من نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تعليمه بسيرته قبل تعليمه بلسانه.[5]

6 ـ أشهر خطباء العصر الجاهلي:

في العصر الجاهلي ذاع صيت العديد من الخطباء لا يمكن حصرهم إلا أن أقدمهم زمنا كعب بن لؤي الجد السابع لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يخطب العرب في الشؤون المختلفة، وكان مهيبا مسموع الكلمة، ولما مات أكبروا موته وأرخوا وظلوا يؤرخون به حتى عام الفيل.

ومن مشهوريهم أيضا قس بن ساعدة الإيادي (قد أدرك الرسول – صلى الله عليه وسلم – وشهد له النبي بالفصاحة)، وعتبة بن ربيعة، ضمرة بن ضمرة.، عمرو بن كلثوم.، لبيد بن ربيعة، قيس بن خارجة بن سنان.، خويلد بن عمرو (الذي خطب يوم الفجار(، حنضلة بن ضرار (خطيب قبيلة بني ضّبة)، المخبل السعد، وغيرهم الكثير تعددوا بتعدد القبائل والبطون[6].

7 ـ أنواع الخطب الأدبية في العصر الجاهلي:

تنوع فن الخطابا في العصر الجاهلي وتعدد بتعدد المناسبات والأغراض التي كانت تلقى فيها الخطبة؛ وأهم أنواع الخطبة هي:

أ ـ الخطب الوعظية

هي الخطب التي يتم إلقاؤها بين القبائل في حالة السلم، وتلقى بعد الحروب أيضًا. تعمل على جعل المستمع يفكر في مكارم الأخلاق، والتأمل في مجريات الأحداث الحياتية، يحاول الخطيب فيها أن يرشد قومه للتفكير في النهاية الحتمية للإنسان.

ب ـ خطب الزواج:

كانت تمثل قمة تقدم الأمة العربية في الناحية الاجتماعية، تمثل صورة من صور التواصل الإنساني، عبارة عن إعلان الخطيب محاسن ومناقب وأخلاق ونسب المتقدم للزواج ليتم قبوله من أهل الفتاة، وفي بعض الأحيان يخرج فرد من أهل العروس ويلقي خطبة قبول أو ترحيب بأهل الخاطب.

ج ـ خطبة المفاخر

في بعض الأحيان تُسمى ''خطبة المنافرات'' وتعني المباهاة بمناقب القوم والنسب.

ومن خطب المنافرات خطبة المنافرة بين عامر بن طفيل وعلقمة بن علاث عندما كانا يتنازعان الرئاسة.

د ـ خطب التهنئة والتعزية:

تكون خطبة التعزية بذكر مناقب الفقيد ومحامده، والتهنئة كانت في كل المناسبات السعيدة الكثيرة في حياة العرب.

هـ ـ خطب الصُّلح:

عندما تنتهي الحروب بين المتخاصمين بالصلح، كان يحين دور الخطيب ذو الرأي السديد، فيقضي على العداوة بين المتخاصمين ونشر السلام.

ومن أشهر الخطباء الذين ألقوا خطب في السلم هو "أكثم بن صيفي".

و ـ خطب الحرب:

عندما كانت تغلب العصبية القبلية والنزاع بين القبائل على صوت العقل الرشيد كان يحين دور الخطيب الذي ينفر القوم ويشجعهم على القتال ويذكرهم بمفاخر قبيلتهم وفي بعض الاحيان كان الخطيب يذكر قومه بالقيم السامية والزهد في الحياة والرغبة في الموت بشجاعة.

نماذج من الخطب في العصر الجاهلي:

خطبة زواج الرسول – صلى الله عليه وسلم – من السيدة خديجة التي ألقاها أبو طالب:

"الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضِئْضِيءِ معدّ، وعنصر مُضَر، وجعلنا حَضَنَة بيته، وسُوَّاسَ حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجاً وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به، فإن كان في قُلٍّ؛ فإن المال ظل زائل وأمر حائل، ومحمدٌ مَن قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها الصداق ما آجله وعاجله من مالي، وهو بعد هذا والله له نبأ عظيم وخطر جليل".

خطبة كعب بن لؤي الذي مات قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم بنحو 560 عام، أوردها ابن كثير في تاريخه، فقد كان كعب ابن لؤي يجمع قومه يوم الجمعة – كان اسمها حينئذ العَرُوبَة – ويخطب فيهم وهو أول من بدا خطبته بقول (أما بعد) ومن خطبه:

"أما بعد: فاسمعوا وتعلموا، وافهموا واعلموا، ليل ساج، ونهار ضاح، والأرض مهاد، والسماء بناء، والجبال أوتاد، والنجوم أعلام، والأولون كالآخرين، والأنثى والذكر، والروح وما يهيج إلي بِلي، فصلوا أرحامكم، واحفظوا أصهاركم، وثمّروا أموالكم، فهل رأيتم من هالك رجع؟ أو ميت نُشر؟ الدار أمامكم، والظن غير ما تقولون، حَرَمُكم زيِّنوه وعظِّموه، وتمسكوا به فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم، ثم يقول:

نهار وليل كل يوم بحـــادث سواء علينا ليلها ونهارها

يؤوبان بالأحداث حتى تأوّبا وبالنعم الضافي علينا ستورها

على غفلة يأتي النبي محمـد فيخبر أخبارًا صدوق خبيرها

وهنا كعب بن لؤي يقتبس من الشعر في خطبه كما أنه كان متأثرا بأفكار أهل الكتاب الذين يعرفون وصف النبي – صلى الله عليه وسلم في كتبهم..

خطبة هانئ بن قصيبة في يوم ذي قار، حين كان يشجع قومه ويحرضهم على القتال:

" يَا مَعْشرَ بكْرٍ، هالِكٌ مَعْذورٌ، خير، مِنْ ناجٍ فرور، إنّ الحذَر لا يُنجي من القَدَرِ، وإنّ الصّبْرَ مِنْ أسْبَابِ الظّفرِ، النيّة ولا الدَّنيّةُ، استقبالُ الموتِ خير مِنْ استِدبَاره، الطَّعْنُ في ثُغَرِ النُّحُورِ، أكْرَم منه في الأعْجَازِ والظهورِ، يا آل بكر، قَاتِلُوا فَمَا للمنَايَا مِنْ بُدّ".

في هذه الخطبة يوضح مدى بطولة قومه واحتقارهم للحياة في جحيم الذل، ويوضح كم هو الموت في ساحة الحرب هو الموت بعزة، ويصف الموت باستقبال الرماح دليل على الشجاعة، وأردف يسرد حكم من رجل خبير كل ذلك في أسلوب سلس منسق يصل للعقول بسهولة.

الهوامش:

1 ـ ابن منظور، لسان العرب مادة (خطب)

2 ـ راجع، عبد الجليل عبده شلبي، الخطابا وإعداد الخطيب، دار الشروق، القاهرة،ط1، 1981، ص13

3 ـ المرجع نفسه، ص 165

4 ـ المخصرة أي السوط، والقناة أي الرمح

5ـ راجع عبد الجليل عبده شلبي، الخطابة وإعداد لخطيب، وأيضا توفيق الواعي: الخطابة وإعداد الخطيب، دار اليقين للنشر والتوزيع، 1999

6 ـ للتوسع انظر، محمد أبو زهرة، الخطابة. تاريخها في أزهر عصورها، دار المعارف، القاهرة، 1989

أدبية الخبر والقص في النثر العربي القديم

وُجد فعل القص مع وجود الإنسان يسجل فيه أخبار السابقين ويزيد فيه من خياله بعض ما يطمح إليه مما يفتقده في واقعه ، ويلبي من خلاله أشواقه وبعض طموحاته. ومن الأمم القديمة التي عرفت فن القص الإغريق والرومان فكانوا من أوائل من عرف القص والسرد وأبدع فيه وكانوا يستمدون مادة قصصهم من الأساطير والخرافات من وقائع بيئتهم. والإنسان العربي القديم عرف ولا شك القصة، حيث دأب القصَّاصون العرب قبل الاسلام الى استلهام الخيال وتحويله الى قصص وروايات فكان أساسها الذي تستند عليه هو الحكايات والأحاديث الخرافية والوقائع التاريخية المأثورة.. إضافة الى أخبار ممن جاورهم من البلدان والشعوب الأخرى.

1 ـ القص في المعاجم العربية:

ورد في القاموس المحيط مادة (قصص): قَصَّ أثره قصا وقصصا: تتبعه والخبرَ: أعلمه "فارْتَدّا عَلَى آثارِهِما قصصا" (الكهف 64)، أي رجعا من الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر ...والقاص من يأتي بالقصّةِ[1]

وجاء في "لسان العرب": (قال الليث: القَص فعل القاص إذا قص القصص، والقصة معروفة، ويقال: في رأسه قصة يعني: الجملة من الكلام ونحوه قوله تعالى: (نحن نقص عليك أحسن القصص) أي: نبين لك أحسن البيان.

ويقال: قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئاً بعد شيء، ومنه قوله تعالى: "وقَالَتْ لِأُخته قصِّيه" أي تتبَّعي أثره.

والقصة: الخبر، وهو القصص، وقص عليّ خبره يقصه قصاً وقصصاً أورده.

والقَصص: الخبر المقصوص بالفتح، والقِصص: بكسر القاف، جمع القصة التي تكتب.

والقاص: الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها.[2]

والقصة إذا تعني "الخبر الذي يتألف من أحداث يتتبعها القاص بالألفاظ والمعاني ويوردها على مسامع الناس فيحفظونها"[3]

2 ـ القصص في الثقافة العربية القديمة:

أ ـ في العصر الجاهلي:

إن القصة في العصر الجاهلي هي جزء لا يتجزأ من الثقافة الشفوية، كانت موجودة وانتقلت عبر الرواة إلى أقلام الكتاب فيما بعد لتستقر متونا كتابية لا تخلو ـ طبعا ـ من علامات شفويتها. ومما ساعد على وجود القصص في هذا العصر هو موقع شبه الجزيرة العربية بين امبراطوريتين عظيمتين كان يدور بينهما حروبا وصراعات كثيرة فكان العرب في كثير من الأحيان وقودا لها ، إذ كان المناذرة حلفاء الفرس والغساسنة حلفاء الروم ، هذا إلى جانب الحروب الداخلية التي كانت تدور رحاها في كل بقعة من الأرض العربية، وكل ذلك كان يخلف وراءه أخبارا وقصصا عن البطولات والفرسان والدسائس والمغامرات يتناقلها الركبان ويتسامر بها أهل المجالس. ولنا أن نتصور ما كان يضاف إليها في اتساعها الزماني والمكاني من قصص عاطفي واجتماعي وأساطير وخرافات لتصبح مع الزمن قصصا شعبيا فيه أفكار القوم وأحلامهم وذاكرتهم وتاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم.

وقد صور كتاب شرح النقائض لأبي عبيدة وكتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني أيام العرب في حروبهم وسلمهم وقد حرّف الرواة الكثير من هذه القصص وزادوا فيها وأدخلوا فيها خرافات الحيوانات وقصص الجن، والعفاريت والشياطين . وبقي الناس يتداولون هذه القصص عن طريق الرواية الشفوية، حتى بدأ تدوين بعضها في العصر الأموي. ومن هذا التراث القصصي أيضاً ما يتصل بملوك المناذرة والغساسنة والدولة الحميرية، وغيرهم ممن سبقوهم أو عاصروهم، كالزباء أو زنوبيا. ومنه أيضاً قصص المحبين وأخبارهم، وبعض الأساطير عن الحيوانات كقصة الحية والفأس في خبر المثل: «كيف أعاودك وهذا أثر فأسك؟». بالإضافة إلى قصص أخرى متناثرة في كتاب الأغاني وغيره عن عمرو بن كلثوم وربيعة بن مكدم، وعبد الله بن جدعان، وغيرهم. وكل ذلك من موروثنا النثري، ولكنه لا يمثل أسلوب الجاهليين ولا صياغتهم.

ب ـ أنواع القصص الجاهلي:

ـ القصة الخرافية الجاهلية:

عرف العرب في جاهليتهم القصص التي تتحدث عن مخلوقات غير مرئية كالشياطين والغول والعنقاء وغيرها مما صنعه الخيال الجاهلي أما خوفا من الطبيعة وغضبها أو إشباعا لتطلع إلى عالم آخر تطمح إليه النفس البشرية تعويضا لعقدة المكوث في الأرض وعدم معرفة ما في السماء وساعد في ذلك السحرة القادرين على القيام بتمثيل أعمال خارقة للعادة كالانمساخ أو تحويل المناديل البيضاء إلى حمام

بطريقة بهلوانية وتتميز هذه الحكايات بترابط هذه الحوادث المشدودة فيها بطريقة واهية ضعيفة وهي جافة مقصورة على حادثة أو اثنتين وقد استمدت النساء العجائز والمرضعات من معين هذه القصص لإمتاع أطفالهن بنين وبنات . وقد أولع العرب القدماء (بالعنقاء) (والهدرة) الحيوان الخرافي ذو تسعة رؤوس (والتنين) حارس الكنوز المتموضعة في بلاد اليمن وكذلك فكرة الصراع بين الإنسان والجن مع أنها قد ثبت وجودها من خلال نصوص القرآن الكريم والصراع مع الشياطين التي جعل منها العرب الجاهليون ذكورا وإناثا، وقد قال الشاعر الجاهلي:

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

حتى وصل بالعرب اليمنيين أن ذكروا أن الجن أقاموا لهم في منطقة وتار اليمنية مملكة يملؤها السحر حيث مدينة البرنز في وحشة لأحد ولها وكذلك قصص اختطاف الجن لأطفال الأشراف من الناس أمثال عمرو بن جذيمة ملك الحيرة ولقيط بن زرارة سيد فزارة.

–القصة المثلية الجاهلية:

اختزل العرب الكثير من قصصهم الجاهلية في أمثال وحكم كانت من صميم التجربة وهذه الأمثال والحكم لم تترك جانبا من جوانب الحياة والمجتمع إلا وطرقته وتحدثت عنه من بين ثلاث آلاف وخمسمائة صيغة مثلية جمعها وشرحها الميداني تجد المئات ذات قصص وحكايات متنوعة كما في الصالة لقمان الحكيم وأكثم بن صيفي وزرقاء اليمامة

– القصة التعليلية الجاهلية:

وهي قصة تتحدث عن التراث الديني الذي ينتشر على مساحة واسعة من أرض العرب حيث تعرض مظهر جبل أو انحدار واد أو نتوء صخرة أو تغور مغارة أو اكتشاف سبب تكوين مخلوق عجيب ففي وادي منى في مكة المكرمة اكتشف المذبح الذي كان يود أن يضحي نبينا إبراهيم بابنه إسماعيل عليه كتلة ذات شكل فريد وبجانبه شق في الصخر يمثل الحزة التي أحدثتها السكين التي استعملها سيدنا إبراهيم لمحاولة التضحية بولده امتثالا لأمر الله تعالى ، وقصة نصب رجل لأصنام في وادي منى تمثل الشيطان الأكبر الذي يرجمه الحجاج في العصر الجاهلي وقصة قبر أبي رغال بين مكة المكرمة والطائف الذي يرجمه المارة لأنه قاد الأعداء إلى بلاده وكذلك الصخرة التي كان يجلس عليها عنترة في منطقة ذات الجواء وهي ما تزال موجودة إلى يومنا هذا أو قصتي طوق الحمامة وطوق الهدهد المذكورتين في كتاب الحيوان للجاحظ

وقصة غار حراء وغار ثور وهما حقيقيتان الأول كان يتعبد فيه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم والثاني اختبأ فيه الرسول عندما هاجر مع أبي بكر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بعد أن لاحقهم المشركون وقصة مسخ طائفة من اليهود إلى قردة بسبب عصيانهم لأوامر الله تعالى وهناك قصة الصرح الذي بناه هامان بأمر من فرعون وقصور ثمود في وادي القرى وقصة خراب سد في اليمن وغيرها.

ـ القصة الجاهلية على لسان الحيوان:

يبدو أن العصر الجاهلي لم يخل من القصص على لسان الحيوان لإظهار عبرة أو حكمة أو للفكاهة والتندر كما في قصة ابن آوى والثعلب رمز المهارة والتيس والضبع رمز السذاجة وقصة الهدهد رمز الألمعية والعبقرية والذكاء وقصة الغراب رمز الحيلة وقصة الديك والنعامة رمز الخدوعين وقصة براقش تمثل إلى مرافقة الغبي .

ومن أشهر القُصاص في العصر الجاهلي عدي بن زيد، يقول بطرس البستاني: "إن عدي بن زيد كان شاعراً صاغ كثيراً من القصص في أشعاره، لا سيما شعره الذي قاله وهو سجين. فكان ينظمها مسلياً نفسه متأسياً بما أصاب الشعوب، الخالية من تغير الأيام والليالي، أو ينظمها ليعظ بها النعمان أبا قابوس، عارضاً عليه صور الملوك الذين أذلهم الدهر بعد عزهم، فذهبوا ضحية الغفلة والغرور أو الخيانة والغدر." [4]

ومن القصاصين الذين اشتهروا آنذاك النابغة الذبياني الذي اصطنع القصص في أشعاره ليعظ بها قومه، أو ممدوحه النعمان أبا قابوس ملك الحيرة (قرب الذبياني من النعمان دفع الشعراء الآخرين لإفساد العلاقة بينهما). فعندما أراد أن يدعو النعمان إلى نبذ أقوال الوشاة، وأن يكون صادق النظر في الحكم عليه، قص عليه قصة زرقاء اليمامة (الشخصية العربية التي كانت ترى الشخص على مسيرة ثلاثة أيام، يضرب بها المثل في بعد النظر ورجاحة العقل). كذلك أسطورة الحياة والأخوين، فكان هدفه أن يقول لقومه إن الثقة المتبادلة انقطعت بينه وبينهم، كما انقطعت بين الحي وشقيق القتيل، بعدما أخذ الدية منها، وأقسم لها على الوفاء ثم خانها وغدر بها.[5]

ـ القصص الواقعي:

وتعني تلك الحكايات التي تتناول شؤون العرب في السلم والحرب، والجد واللهو، وهو النوع الأغزر في أدبهم لأنه كان وعاء لتاريخهم و أمجادهم وأخبارهم وأنسابهم، فيندرج في كل ما يتعلق بأيامهم وحروبهم

وأخبار ملوكهم وأشرافهم وأبطالهم وشعرائهم وصعاليكهم، وهو ما زخرت به كتب التاريخ والأدب المختلفة وفي مقدمتها كتب الجاحظ، وابن قتيبة والمبرد والاصفهاني وغيرهم. واتخذ هذا اللون من القص شكل الخبر الذي كان له كبير الأثر على بنية القصة العربية من ناحية المضمون والشكل، فهو فن يتطلب وجود راو مشارك أو مفارق أو بالحرى وجود سلسلة من الرواة الذين بالأساس أخذوا علمهم وروايتهم بالأدب الجاهلي من مصدرين؛ أولهما الكتب المدونة التي كتبوا أو نقلوها عن السابقين لهم ، وثانيهما علماء الأنساب والأخبار الذين كانوا معينا ثرا لأيام العرب وأخبارهم وأشعارهم وقصصهم [6]

ـ القصص في عصر صدر الإسلام:

إن القص بعد الإسلام وبسبب ظهور النص القرآني ازدهر وتطور وانتقل الى مرحلة التوثيق وهذا بفضل دعوة الاسلام الى العلم والتعلم وبخاصة محو الأمية التي كانت ليست بالقليلة آنذاك، بحكم البيئة والطبيعة الصحراوية وعدم وجود مسببات التواصل الحضري التي تتيح لمن يريد العلم والتعلم أن يحصل على مبتغاه وهذا لا يعني عدم وجود متعلمين وكتَّاب في تلك الحقبة لكنها ليست كما أصبحت عليه بعد الإسلام إلى وقتنا الحاضر.

استخدم القرآن الكريم القصة في أسلوب أحسن للتعبير عن كثير المعاني واتخذها وسيلة للبيان ما في الأم الماضية لاستخراج العبرة والعظة. وكان القصص القرآني وهو أحسن القصص حافزا مهما في اقبال الناس على القصة، وكان الناس يتسامرون بقصص الملوك والأبطال وسادات القوم والأيام. ويعود ذلك إلى تأصل عادة السمر في النفوس، فإن الأحاديث الجميلة المفيدة من أبرز صفات المروءة عند العرب.[7]

ولقد تطور هذا الفن في العهد الإسلامي خصوصا بعد الفتوحات الإسلامية وما نتج عنه من اختلاط مع الفرس، والروم، والمصريين، والأمم القديمة الأخرى ، وهنا يحسن بنا تتبع فن القصص عبر مراحله التاريخية الإسلامية:

في عهد النبوة:

كان الرسول صلى الله عليه وسلم أول من سلك نهج القرآن الكريم، وترسم خطاه في توظيف القصة من أجل نشر الوعي وتعميق مبادئ الإسلام في النفوس حيث نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ من القصة أسلوبا مهما من أساليب الدعوة، يحملها قيم الإسلام معانيه، ويرى عليها الصحابة ويوجههم من خلالها إلى فهم هذا الدين عقيدة في الفكر وطريقة في السلوك وواقع الحياة.

في عهد الخلفاء الراشدين:

إن القصص الإسلامي بدأ في زمن النبوة، إلا أن وظيفة القصص تطورت في عصر الخلفاء الراشدين أيام الفتوح لما للقص من أثر تحريضي وتربوي وديني يتمثل في تشجيع المقاتلين. فقد كان القصاص يثيرون فيهم الحماسة الدينية كالشعراء في الأيام الجاهلية. وإن أول قاص رسمي في الإسلام كان تميم الداري في عهد عمر بن الخطاب[8]، وكان يقص في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم. وهكذا غدا القص عملا رسميا يعهد به إلى حال رسميين يعطون عليه أجرا، وكان بعض القضاة يعينون قصاصا أيضا مثل سليمان بن عتر التجيبي اليمني الذي كان أول من قص في مصر في سنة 38 من الهجرة. وكان قد جمع له القضاة إلى القصص ثم عزل عن القضاة وأفرد بالقصص. وكان الخلفاء الراشدون حريصين على الاهتمام بالقصص. فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أذن لقاص لأن يقص على الناس في المسجد الحرام كما فعل عثمان بن عفان رضي الله عنه إذ افرد ابن عباس يوما من أيام الأسبوع للقصص، واستمرت هذه القصص الوعظية في العصر الأموي والعباسي.

في العهد الأموي:

وكم كثر القصاص في أيام الفتنة وإبان معركة صفين التي طال أمدها بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية بن سفيان رضي الله عنه، وهنا بدأ القصص يخرج عن غاياته الدينية إلى الوظيفية السياسية، ولعل معاوية من أهتم بالقص وأدرك أهميته وأثره السياسي، فعين من يقص على الناس مرتين في اليوم، مرة بعد صلاة الفجر، ومرة بعد صلاة المغرب، هذا يعني أن القصص في زمن معاوية، أصبح له شأن لم يكن له من قبل، ولعل معاوية وطد الشكل الأول لفن القصة باقتران القص بالشعر. إن أول من قص من الصحابة الأسود بن سريع، وأول من قص من التابعين بمكة عبيد عمير الليثي، وكان للخوارج قصاص كثيرون أشهرهم صالح بن مسرح، وكان يخلط مواعظه وقصصه بالدعوة إلى الجهاد.

أنواع القصص الإسلامي :

ينقسم القصص الإسلامي إلى ثلاثة أقسام:

–1القصص الديني: لا غرو أن يكون القصص الديني أهم أنواع القصص في العصر الإسلامي، وكان هذا العصر عصر الصراع بين الكفر والإيمان داخليا وخارجيا. ثم إن الصراعات السياسية التي عصفت بدولة الإسلام من حروب الردة إلى حرب الجمل إلى حرب صفين إلى حروب الأمويين مع معاريضهم من

خوارج وشيعة وزبيريين. كانت ترتدي ثوبا دينيا، ولو كانت تختلف أسبابها وأهدافها. ولا نبالغ إذا قلنا إن القرآن الكريم كان المصدر الأكبر للفن القصصي في الثقافة العربية عموما.

-2القصص التاريخي الأسطوري: كان هذا القصص يتناول تاريخ الملوك، ولا سيما ملوك اليمن والحيرة وتدمر والغساسنة، وهو امتداد طبيعي للقصص الجاهلي في هذا المجال ولذلك لم يتغير شكلا ومضمونا، إلا ما أضيف إليه من مؤثرات إسلامية. كأن يجعل البطل يرهص لمجئ الإسلام والبعثة النبوية، كما نجد في قصة سيف بن ذي يزن، ونبوءة شق، وسطيح أو في قصة أبهة الحبشي و غيرها.

-3القصص الواقعي: هذا القصص حفلت به كتب التاريخ والأدب. إنه من الأخبار والنوادر والطرائف عن حياة العرب بمختلف فئاتهم وطبقاتهم، وقد ظل القصص شفويا فترة أطول من سواه لأنه قصص دنيوي وصور من صور الحياة المتجددة، وأول من دون منه هو قصص الحب العذري وقصة ليلى ومجنون، وأن مجنون شخص لا وجود له أو شخص تاريخي ولكن أضيف إليه كلاما ما يعبر عن حال المحب المأسوي العذري.

الهوامش:

1ـ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق، أبو الوفاء المصري الشافعي، دار الحديث، القاهرة، 2008 ، مادة (قصص)

2 ـ ابن منظور، لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت، مادة (قصص)

3 ـ راكان الصفدي، الفن القصصي في النثر العربي القديم حتى مطلع القرن الخامس الهجري، الهيئة العامة السورية للكتاب،2011، ص 20

4 ـ بطرس البستاني: أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار مارون عبود، د ط، ص 33

5 ـ للتوسع راجع، أحمد أمين، فجر الإسلام، وعلي جواد، المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام.

6 ـ علي عبد الحليم محمود، القصة العربية في العصر الجاهلي، دار المعارف، (د ت) مصر، ص 112

7 ـ معراج أحمد الندوي، القصة العربية في العصر الإسلامي، راجع الموقع الإلكتروني: www.almothaqaf.com

8 ـ راكان الصفدي، الفن القصصي في النثر العربي القديم حتى مطلع القرن الخامس الهجري، ص 40

الخطابة في صدر الإسلام

تُعد الخطابة ضرورة اجتماعية تفرضها الظروف، وتعبر عن المجتمع بوجه عام، وكل الأمم في حاجة إليها، بل إن المواقف المجيدة في تاريخ الأمم مدينة للخطباء الذين عبروا عن قضاياهم أصدق تعبير، وأثروا في مجتمعاتهم أعظم التأثير. والتاريخ الإسلامي يعد أكبر دليل على فعالية الخطابة في نشر أعظم دين، حيث مثلت بلا شك في صدر الإسلام إحدى الركائز الأساسية والوسائل المهمة في الدعوة إلى الله، ونشر دينه الحنيف في بيئة قبلية جاهلية.

إن أمر الله تعالى جاء إلى النبي الكريم ليعلن الرسالة ويبلغها إلى الناس فلم يسعْه عليه الصلاة والسلام إلا القيام بما أمره به ربه، ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: 67]، فقام الرسول الكريم يدعو بالدين الجديد فأقبل الناس ينظرون ويتساءلون، ما الأمر، فكان منهم من شرح الله صدره للإسلام، ومنهم من أعرض واستكبر واتبع هواه، وحارب دعوة الله.

ومنذ ذلك الحين أهَلَّ على الخَطابة زمان جديد، كان إيذاناً بارتقائها وعلوِّ شأنها، فقد اعتمدت الدعوة الجديدة على الخَطابة في نشرها، والدفاع عن مبادئها ضد خصومها، وكذلك صنع المناوئون لها، "ثم إن الإسلام بالإضافة إلى اعتماده على الخَطابة في نشر الدعوة، قد جعلها ضمن الشعائر التعبدية، ففرض خطبة كل يوم جمعة، لا تصح الصلاة بدونها"[1]، كما أن هناك الخطبَ المشروعة في الحج، وفي الاستسقاء، وفي الخسوف والكسوف، وفي الزواج، والجهاد وغيرها، كما أن الشريعة الإسلامية تحث دائما على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإسداء النصح للآخرين.

ـــ خصوصية فن الخطابة في العهد الإسلامي:

لقد ارتقى فن الخَطابة في ظل الدعوة الإسلامية، وبلغ الغاية في الكمال مظهرًا وجوهرًا، أو أداءً ومضمونًا، وكان من أكبر عوامل ارتقائه وسموه؛ استمداده من القرآن الكريم، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتأثّر الخطباء ببلاغة وفصاحة القرآن والحديث النبوي الشريف.

وقد ذكر ابن خلدون أن كلام العرب الذين أدركوا الإسلام قد فاق كلام الجاهليين، في الشعر، وفي النثر بأنواعه من خطابة وكتابة ومحاورة ونحوها، وأن ذلك كله قد أتى أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها

من منظوم الجاهليين ومنثورهم، ثم قال: " والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة، والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث، اللذيْنِ عجز البشر عن الإتيان بمثليْهما، لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية، ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها، فكان كلامهم في نَظْمهم ونثرهم أحسنَ ديباجة وأصفى رونقا من أولئك، وأرصف مبنى وأعدل تثقيفا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة، وتأمّلْ ذلك يشهدْ لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والتبصّر بالبلاغة [1]

الخطابة خير سبيل إلى الحجاج والإقناع:

لا شك أن مجيء الاسلام أبرز الأحداث التي كان لها أثرها في تطور فن الخطابة، ولهذا انبرت الخطابة تشرح الدعوة الإسلامية، وتؤيدها وتدعو اليها، وتدافع عنها، وتبين أهدافها الكبرى، ومثلها العليا لأن الخطابة أقدر على شرح الحقائق، ومناقشة المسائل، فهي طريق الاقناع بالحجج العقلية، والبراهين المنطقية، والمؤثرات الوجدانية، ولأنها في مجال القول يتسع فيها لإفهام الخاصة والعامة، ولأن القرآن لم يعرض لها بما ينفر منها، أو يزهد فيها بل إنها كانت عُدة الرسول في كل موقف مشهود، وقد رفع صلى الله عليه وسلم لواءها من يوم أن نزل قوله تعالى " وأنْذِر عَشيرتك الأقْربين " فأتى الصفا فصعد عليه، ثم نادى " ياصباحاه " فاجتمع الناس عليه فقال " يا بني عبد المطلب، يا بني فهد، يا بني كعب، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم مُصَدقي ؟ " قالوا نعم . ما جربنا عليك كذبا . قال : " إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " ، وبهذا اتخذ الرّسول الخطابة أداة لنشر دعوته واقناع المشركين بصدق رسالته. ثم اتخذها بعد الهجرة لإيضاح تعاليم الإسلام وعظ بها المسلمين وارشادهم الى ما فيه صلاحهم، وما لبث هذا الضرب من الخطابة أن أصبحت له تقاليد وأصول خاصة به. [2]

ودعا الرسول (ص) المسلمين الى الجهاد لنشر الدعوة الاسلامية في الأمم المجاورة للعرب فوجد ضرب آخر من الخطابة الغاية منه الحث على الجهاد في سبيل الله. وما لبثت خطبة الجهاد أن ازدهرت باتساع الفتوح الاسلامية وجدت طبقة خاصة من الخطباء تولت الحث على الجهاد وتذكير المسلمين بما ينتظرهم من الثواب الكريم إذا احسنوا البلاء في قتال المشركين. [3]

وكان الرسول الكريم وخلفاؤه من بعده يبعثون العمال والولاة الى الامصار فإذا قدم الوالي مصره قام خطيبا في الناس وبين لهم خطته التي سيسير عليها. وقد أصبحت هذه الخطبة سنّة للخلفاء والولاة يستهلون بها ولايتهم .

أغراض الخطابة في صدر الإسلام:

كثير من أغراض الخَطابة التي كانت قبل الإسلام؛ بقيت أيضاً بعد الإسلام، مثل الزواج والصلح، والحث على القتال، والأغراض السياسية، والقضاء وغيرها، وبقيت أيضاً كثير من عادات الخطباء العرب قبل الإسلام، واستمرت إلى ما بعده، مثل اعتماد الخطيب على العصا، وإلقاء الخطبة من مكان مرتفع، أو فوق الراحلة، وقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته في حجة الوداع، ومِثل لفّ العمامة، والإشارة أثناء الإلقاء، وغير ذلك.

ولظهور الأحداث السياسية التي طرأت على المجتمع الاسلامي أثرها في تطور الخطابة وازدهارها، فبعد وفاة الرسول (ص) اختلف الناس في أمر الخلافة وتنازعها المهاجرون والأنصار واستعان كل فريق بالخطابة في تأييد حقه فيها، فكانت خطب السقيفة أول ما عرفه العصر الاسلامي من الخطب السياسية. وظهرت طلائع الفتن الداخلية، فكان ظهورها عاملا في كثرة الخطباء، فنجد الخطابة تلعب دورا هاما في فتنة عثمان، وقبله أبو بكر، ثم إبان خلافة الإمام علي كرم الله وجهه حين انقسم المسلمون مذاهب وأحزابا كل منها يريد الخلافة لنفسه . فكان على الخطيب تأييد حزبه ودعوة القوم الى نصرته والى مجاهدة خصومه.

فهذه الاحداث التاريخية كلها عامل فعال في ازدهار الخطابة وتنوع أغراضها في صدر الإسلام.

وتُضاف إليها الفتوح الخارجية التي اتسع نطاقها زمن عمر وعثمان . كما كان للحياة الحضرية الجديدة التي عرفها العرب ولقيام حكومه نظامية لها دستورها وأنظمتها، ثم اختلاط العرب بالأعاجم واتصالهم بحضارتهم، كان لهذا كله أثره في تطور الخطابة في هذا العصر.

خصائص الخطابة في صدر الإسلام:

اكتسبت الخطابة في الإسلام مزايا وخلالًا خاصة لم تكن فيها من قبل، حيث صارت تفتتح بحمد الله والصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم، والتشهد بالشهادتين، والاستشهاد بآي من القرآن الكريم، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم، والالتزام في مضمونها بأدب الإسلام وشريعته، مما يعني إهمال

بعض الأغراض التي كانت موجودة في الجاهلية، والترفع بالخَطابة عنها، مثل التنافر والتفاخر بالأحساب والأنساب الجاهلية، ونحو ذلك مما كان سائدًا قبل الإسلام.

وقد ذكر الجاحظ أن خطباء السلف الطيب وأهل البيان من التابعين لهم بإحسان مازالوا يسمون الخطبة التي لم تبتدأ بالتحميد، وتستفتح بالتمجيد " البتراء " ويسمون التي لم تُوشَّح بالقرآن وتُزيَّن بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: " الشوهاء." وخطب أعرابي فلما أعجله بعضُ الأمر عن التصدير بالتحميد والاستفتاح بالتمجيد، قال: " أما بعد بغير ملالةٍ لذكر الله ولا إيثارِ غيرِه عليه، فإنا نقول كذا، ونسأل كذا"، فرارًا من أن تكون خطبته بتراء أو شوهاء [4]

وفي عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، كانت أساليب الخطابة لذلك العهد رصينة في جملتها، سهلة الألفاظ إلا في القليل، لها مميزات الخطابة القوية، تعتمد على الألفاظ الضخمة، وعلى الجمل القصيرة يقل فيها السجع إلا إذا جاء عرضاً غير مقصود، فالخطبة ترسل إرسالا، لا تكلف فيه ولا تنميق، ومع ذلك تكون قوية الأسر، متينة السبك، ولا غرو فلقد كان القائلون مقاويل العرب وأبلغهم وكان المقام يتطلب لساناً بليغا يحرضهم ويدعوهم.

ولقد كثر الاقتباس من القرآن، وكان علي وصحبه أكثر غراما بالاقتباس يدخلون الآية والآيات في معرض خطبهم هناك ملاحظة تبدو في خطب علي وتظهر ظهوراً واضحاً إذا أنت وازنت بين خطبه التي قالها في أول النزاع وآخره،؛ فانك تجد خطبه التي قالها بعد التحكيم، والتي يستفز فيها القوم إلى حرب معاوية، ضخمة في ألفاظها، قوية في أسلوبها، متينة فخمة، أمتن وأقوى من تلك الخطب التي قالها في أول النزاع، وكانت خطبه تشتد وتقوى، كلما ضعف أمله في نصرة قومه، وزاد تواكلهم وتخاذلهم، وحسبك أن ترجع إلى خطبته التي قالها لرؤساء أنصاره ووجوههم بعد أن رجع من حرب الخوارج؛ أو إلى خطبته بعد أن أغار النعمان بن بشير على عين التمر، أو عندما أغار الضحاك بن قيس على الحيرة، أو حينما أغار سفيان بن الغامدي على الأنبار، واستمع إلى السيل المتدفق من فم علي حين يقول:. . . ألا وأني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وعلاناً، وقلت لكم أغزوهم من قبل أن يغزوكم، فو الله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلّوا، فتخاذلتم وتواكلتم، وثقل عليكم قولي، واتخذتموه وراءكم ظهريا، حتى شنت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان...

وتعليل هذه الظاهرة واضح لا شك، هو ذا التخاذل الذي بدا من القوم بعد التحكيم، فلقد سئموا القتال وملوه، وركنت نفوسهم إلى الهدوء والدعة، واستسلموا إلى الراحة، ووجدت الفرقة سبيلها إلى قلوبهم، فكان الإمام في أشد الحاجة إلى ما يبعث الحياة فيهم، ويعيد الحماسة إليهم، فلا غرو، كان يلجأ إلى الخطابة فيجعلها قوية الأسر، مليئة بالألفاظ الضخمة التي تثير النفس، وتبعث النخوة، مفعمة بالتحذير والانذار، علها تحيي الميت أو تبعث الروح في الجماد.[5]

أشهر الخطباء في عصر صدر الإسلام:

لا شك أن الرسول الكريم من أشهر خطباء العصر الإسلامي لأنه القائم الأول على الدعوة الإسلامية المكلف بها من الله عز وجل.فقد أتاه الله جوامع الكلم، وكان له صلى الله عليه وسلم خطيب هو ثابت بن قيس بن شماس ، وكان جهير الصوت خطيباً بليغاً. وأبو بكر الصديق وهو صاحب رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم– وخليفته بعد وفاته، واسمه عبد الله، ويقال: عتيق بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرَّة بن كعب بن لؤي القرشيّ التَّيمي، بُويع أبو بكر الصديق بعد وفاة النَّبي الكريم بإجماعٍ من المسلمين، فقد كان صاحب النَّبي في دعوته وكان أوَّل من أنفق في سبيل هذه الدَّعوة وبذل عمره وماله وروحه فداءً لرسالة الإسلام، واستمرَّت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتوفِّي مسمومًا وتولَّى أمر الخطبة بالنَّاس بعد وفاة النَّبي المصطفى أيَّام الجمعة وفي الفتوح، وغير ذلك مما استدعته الضَّرورة وسنَّه النَّبي محمَّد –عليه الصَّلاة والسّلام.

الحسن البصري: هو الحسن بن يسار البصري، كان إمامًا وقاضيًا ومحدثًا من علماء التَّابعين، وهو من الشَّخصيَّات المؤثِّرة والفاعلة في عصر صدر الإسلام، فكان قوله فصلًا ورأيه لا يرد، فيدخل على الولاة ويأمرهم وينهاهم ولا يخشى قول الحق، عمل كاتبًا للرَّبيع في عهد معاوية بن أبي سفيان، وقد أسهمت نشأته بين كبار الصَّحابة في تعليمه فتأثَّر بفصاحتهم ورجاحة عقولهم، وحفظ القرآن صغيرًا وروى عن الصَّحابة أحاديثهم ممّا أسهم في بلاغته وفصاحة لسانه وعلوّ بيانه، وقد كان عالمًا جليلًا وخطيبًا مفوَّهًا، فقيل إنَّه أعلم أهل عصره، وقد تتلمذ على يده الكثيرون، ومن أشهرهم واصل بن عطاء زعيم مذهب المعتزلة..

الهوامش:

1 ـ إسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهارات الخطيب، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط 5، 2016، ص52

2 ـ عمرو بن بحر أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ ج 2 ، ص 6.

3 ـ راجع محمد أبو زهرة، الخطابا في أزهر عصورها، ص 40/ 45

4 ـ انظر حسن الحاج حسن ، أدب العرب في صدر الإسلام، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 2، 1992 ، ج 1، ص 105

5 ـ أحمد بدوي، الخطابة في عهد علي بن أبي طالب، مجلة الرسالة، ع221، ar.wikisource.org/wiki/

الخطابة في العصر الأموي

انتقلت الخطابة إلى العصر الأموي وشهدت أزهى عصورها حيث راجت رواجا كبيرا لا سيما مع قيام الدولة الأموية بعد مقتل علي بن أبي طالب في 17 رمضان عام 40 هـ. كما عُدَّ العصر الأموي هو النموذج المكتمل للخطابة دون العصور السابقة الأخرى، إذ ازداد عدد الخطباء ازديادًا بالغًا، وتعدّدت طوائفهم ومذاهبهم الفكريّة، فكان لكل حزب من الأحزاب خطباؤه الخاصين، وكان الخطيب الأموي يتعمّد إلى استخدام أساليب خاصة من أجل التأثير في عواطف الجمهور وتفكيرهم

دواعي الخطابة في العصر الأموي:

يعد بدء الدولة الأموية من تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما لمعاوية بن أبي سفيان، يوم 25 ربيع الأول عام 41هـ، واستمرت حتى معركة " الزاب " التي جرت بين جيوش العباسيين وبني أمية، حيث هُزم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، وذلك في 11 جمادي الأولى عام 132 هـ، وبذا فقد دامت هذه الدولة ما ينوف إحدى وتسعين سنة، وقد توالت عليها أسرتان، هما الأسرة السفيانية، والأسرة المروانية..

وقد ساعد الانقلاب السياسي الذي شهدته الدولة الإسلامية على توفرُ دواعي الخَطابة في ذلك العصر، والتي كان أبرزها وجود الخلافات المذهبية والأحزاب السياسية منذ فجر الدولة، بل منذ خلافة سيدنا علي كرم الله وجهه، فقد ظهرت الشيعة والخوارج، وكان ثَمّ حزبٌ للإمام عليّ، وآخرُ لسيدنا معاوية، ثم بعد ذلك تتابعت الفتن والأحداث، فكان استشهاد الإمام الحسين، " ولما وصل خبر مقتل الحسين بن علي إلى الحجاز؛ أعلن عبد الله بن الزبير خلع يزيد، وبدأ يأخذ البيعة لنفسه من الناس [1] "، وكان من أمر ابن الزبير مع الأمويين من الحروب ما كان، كما قامت جماعة من الشيعة بالعراق واتفقوا على أن يأخذوا بثأر الحسين بن عليّ، ويقتلوا مَن قتَله.[2]

ثم كانت حركة ابن الأشعث التي خلع فيها يد الطاعة من الخليفة عبد الملك بن مروان، إثر خلاف وقع بين ابن الأشعث والحجاج بن يوسف بعد عام 80 هـ، وغير هذا من الأحداث، فضلا عن أن الخوارج بقوا شوكة في وجه الأمويين، ومصدر إثارة ضدهم.

في مثل هذه الأجواء تروج الخَطابة، ويعمد كل حزب أو فريق إلى التركيز عليها كسلاح إعلاميّ خطير في استمالة الآخرين لصفه، والانتقاص من خصومه.

وقد كان من عوامل قوة الخَطابة أيضا: حركة الفتوحات الإسلامية وتوسعه، كما ساعد على ازدهارها في هذا العصر عوامل أخرى:

"منها: الجدل المحتدم بين الفرق الدينية، ومنها: كثرة الوفود على الخلفاء والولاة، وقيام بعض الوعاظ بالخَطابة في المساجد ووعظ الناس، منذ نصّبهم معاوية لهذا الغرض، ومنها: إقبال البلغاء على القرآن الكريم يحفظون ويدرسون، ونماء الثقافة اللغوية والأدبية في تلك الحقبة، والعناية بحفظ ما خلفه السابقون " [3]

ومما ساعد على ازدهارها كذلك أنه " كانت تُعقد مجالس للمباراة في الخَطابة، والسبق فيها، وكثيرا ما كان يُدعَى الشخص إلى القول مفاجأة، ليُختبَر مقدار بيانه، وقوة جنانه، وحضور بديهته، ونهوض حجته، ومن ذلك ما عقده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي العراق من مجلس للخَطابة، تبارى فيه خالد بن صفوان، وشبيب بن شيبة، والفضل بن عيسى، وواصل ابن عطاء، وقد نال في ذلك المجلس قصبَ السبق واصلُ بن عطاء " [4]

الخصائص الفنية للخطابة الأموية:

-1الإعداد للخطبة، حيث تنم خطب كثيرة عن العناية بإعدادها، والتأني في صوغها والتدبر في ترتيب أجزائها، وتنسيق أفكارها، والتأنق في أسلوبها.

-2افتتاح الخطب كان صورة من افتتاحها في صدر الإسلام في الأعم الأكثر.

فأكثرها مبدوء بالحمد لله والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسوله، وبعضها مبدوء بالتهديد والوعيد لتنبئ عن غضب الخطيب وترهيب السامعين بشديد عقابه، كبعض خطب الحجّاج بن يوسف، وبعضها

مبدوء بالشتم والتوبيخ لأن المقام مقام تقريع وتأنيب، مثل بعض خطب زياد، وكان بعضها يبدأ بالموضوع مباشرة، وغير هذا من الافتتاحيات.

-3بالنسبة لأجزاء الخطبة؛ بعض الخطب قائمة كلها على عَرْض الموضوع، وبعضها مقسمة إلى مقدمة، وعَرْض، وخاتمة.

-4وتمتاز الخَطابة في هذا العصر بمشابهتها الشعر في إبراز المعاني والأفكار، وتوضيحها وتجسيمها في قوالب من التخيل والتضاد، كالتشبيه والاستعارة، والكناية، وعرض الصور المتضادة، والطباق، ونحوها.

-5وأما التعبير الخطابي فيتسم بقوة العبارة وجزالتها، وقصر الجمل، والعناية بالموقع والرنين.

-6وكما كانت الخطب في صدر الإسلام، فإن خطب هذا العصر يغلب عليها كلِّها الإيجاز المعتدل، ويقل فيها التوسط القريب من الطول، وتندر فيها الخطب المسهبة المطولة.

-7وقد تأثر كثير من الخطباء في خطبهم بالقرآن الكريم، فكثر اقتباسُ آيات من القرآن، ووضْعُها المواضع الملائمة لها من الخطبة، كما كان بعض الخطباء يعمدون إلى استمداد بعض مضامين خطبهم من القرآن الكريم.

-8وفي كثير من الخطب كان هناك استشهاد بالشعر، أو اقتباس من عباراته ومعانيه.

وهكذا بدت لنا ملامح الخَطابة في العصر الأموي، وقد ظلت رائجة مزدهرة لما ذكرنا من أسباب ودواع، وخاصة ما كان من أمر الخصومات والثورات التي اعتمدت على الخَطابة، وجعلها وسيلة دعاية وحرب ضد الخصوم.

"ولما هدأت كل هذه الخصومات، واستقر الأمر لبني مروان؛ انبعث في الشعر نشاط قلل من نشاط الخَطابة وأهميتها، ولكنها لم تنقطع، وقد كان الخوارج حتى آخر الدولة مسعرًا للخَطابة كثيرًا "[5].

أشهر خطباء العصر الأموي:

ولقد اشتهر في هذا العصر خطباء كثيرون منهم معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، رضوان الله عليهما، وواصل بن عطاء، وزياد، والحجاج، ومنهم أبو واثلة إياس بن معاوية المزني، وقد أفاض الجاحظ

في الحديث عن بلاغة الأخير وفصاحته وجودة فراسته [6]، ومنهم عمرو بن سعيد المعروف بالأشدق، وأبوه سعيد بن العاص بن أمية، ومنهم سُحْبان وائل ، وعمر بن عبد العزيز.

من خطب هذا العصر:

أ- خطبة لعمر بن عبد العزيز:

قال ابن عبد الحكم: وخطب عمر بن عبد العزيز الناس فقال: أيها الناس: إنه ليس بعد نبيكم نبي، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليكم كتاب، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، ألا إني لست بقاضٍ، وإنما أنا منفّذ لله، ولست بمبتدع ولكني متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله عز وجل، لست بخيركم وإنما أنا رجل منكم، ألا وإني أثقلكم حملا، يا أيها الناس إن أفضل العبادة أداء الفرائض، واجتناب المحارم، أقول قولي هذا، واستغفر الله العظيم لي ولكم [7]

ب- خطبة للحجاج حين أراد الحج:

يا أهل العراق: إني أردت الحج، وقد استخلفت عليكم ابني محمدًا، وما كنتم له بأهل، وأوصيْته فيكم بخلاف ما أَوْصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار؛ فإنه أوصى أن يُقبل من محسنهم ويُتجاوز عن مسيئهم، وأنا أوصيته أن لا يَقبل من محسنكم ولا يَتجاوز عن مسيئكم، ألا وإنكم قائلون بعدي مقالة لا يمنعكم من إظهارها إلا خوفي، تقولون: لا أحسن الله له الصحابة؛ وإني أعجّل لكم الجواب: فلا أحسن الله عليكم الخلافة، ثم نزل [8]

جـ- خطبة لأبي حمزة الشاري " من الخوارج "

خطب أبو حمزة الشاري بمكة، فصعد المنبر متوكئا على قوس عربية، فخطب خطبة طويلة، قال:

يا أهل مكة؛ تعيرونني بأصحابي، تزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شبابًا؟ نعم شباب والله مُكْتَهِلون في شبابهم، عمِيّة عن الشر أعينهم، بطيئة عن الباطل أرجلهم، قد نظر الله إليهم في آناء الليل متثنية أصلابهم بمثاني القرآن، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقا إليها، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقةً كأن زفير جهنم في أذنيه، قد وصلوا كَلال ليلهم بكَلال نهارهم، أَنْضَاء عبادة، قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم، مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسامهم من

كثرة الصيام وطول القيام، مستقلون لذلك في جنب الله، موفون بعهد الله، منجزون لوعد الله، حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فُوِّقت، ورماحهم قد أُشْرِعَت وسيوفهم قد انْتُضِيَت، وبرقت الكتيبة، ورعدت بصواعق الموت؛ استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، فمضى الشاب منهم قُدما حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه، قد زُمِّلت محاسن وجهه بالدماء، وعُفِّر جبينه بالثرى، وأسرع إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء، فكم من مقلة في منقار طائر، طالما بكى صاحبها من خشية الله، وكم من كف بانت عن معصمها، طالما اعتمد عليها صاحبها في سجوده، وكم من خدّ عتيق وجبين رقيق، قد فلق بعُمُد الحديد؛ رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها في الجنان؛ ثم قال: الناس منا ونحن منهم، إلا عابد وثن، أو كفرة أهل الكتاب، أو إمامًا جائرًا، أو شادًّا على عضده [9]

الهوامش:

1 ـ محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 6، 1991م، ج 4، ص 61-62.

2 ـ المرجع نفسه، الجزء 4، ص 141-142.

3 ـ أحمد الحوفي، فن الخَطابة، الدار العلمية ، بيروت، 1998 ، ص 213.

4 ـ محمد أبو زهرة، الخطابا في أزهر عصورها ص 299.

5 ـ عبد الجليل شلبي، الخَطابة إعداد الخطيب، دار الشروق، مصر. ص 211.

6 ـ راجع ، الجاحظ، البيان والتبيين، دار الحديث، القاهرة 1/ 98 –ص 101.

7 ـ أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق أحمد عبيد، مكتبة وهبة القاهرة، ط 2، ص 35 – 36،

8 ـ ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، 2006، ج4، ص205-206.

9 ـ المرجع نفسه، ج4/ 227- 228.

أدب السِّـــير والمغـــازي

إن علم المغازي والسير من أشرف العلوم قدرا، وأجلها خطرا، لشرف موضوعه وهو أخبار حياة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته، وقد أولى سلف الأمة عناية كبرى في حفظ هذه الأخبار والسير وتصنيف المصنفات فيها منذ القرن الأول، بل تعد المؤلفات فيه هي أول الكتب التي ألفها المسلمون، وكان من أهم فنونه معرفة طبقات أئمة المغازي والسير الذين إليهم المرجع في هذا الباب، ومعرفة مراتبهم عند الاختلاف، ومن هو المقدم في كل طبقة، ومصنفاتهم.

1:في تعريف علم المغازي :

لغة : المغازي جمع غزوة وهو السير إلى قتال العدو من غزا يغزو غزوا فهو غاز إذا أغار على قوم وقصد حربهم.

والسِّيَر جمع سيرة وهي الحالة من السير، والسيرة السنة.[1]

ـ اصطلاحا : علم المغازي والسير هو فن من فنون علم التاريخ من حيث إنه يؤرخ لحياة النبي صلى الله عليه وسلم ابتداء من إرهاصات بعثته، وأحوال العرب الذين بعث فيهم، وأحداث مولده، وأحوال نشأته، وقصة بعثته، وأخبار دعوته في مكة، وهجرته إلى المدينة، وإقامته للدولة فيها، وغزواته وسيرته، وسياسته مع المسلمين والمحاربين والمعاهدين إلى وفاته صلى الله عليه وسلم.

قال الشيخ قاسم القونوي في تعريف علم السير (السير جمع سيرة وهي الحالة من السير، كالجلسة والركبة، للجلوس والركوب، ثم نقلت إلى معنى الطريق والمذهب، ثم غلبت في لسان الشرع على أمور المغازي، لأن أول أمرنا السير إلى العدو، وأن المراد بها سير الإمام ومعاملاته مع الغزاة والأنصار، ومع العداة والكفار، وإنما سمي بها هذا الكتاب، لأنه بين فيه سير المسلمين في المعاملة مع الكافرين من أهل الحرب، ومع أهل العهد منهم من أهل الذمة والمستأمنين، ومع المرتدين بالإنكار بعد الإقرار، ومع أهل البغي الذين حالهم دون حال المشركين[2].

وقال الشيخ الطناحي (المقصود بمصطلح "السيرة النبوية" هو ما يتصل بسيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، من حيث الحديث عن نسبه الشريف، ومولده ونشأته، وبعثته، وصفاته، وتصرف أحواله إلى

أن لقي ربه راضياً مرضياً بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وترك أمته على مثل المحجة البيضاء، فهذا هو الأصل في مصطلح "السيرة النبوية" لكنه قد استعمل أيضاً مضافاً إليه حديث المغازي والحروب التي خاضها الرسول صلى الله عليه وسلم. وبناء على ما سبق يمكن إيجاز تعريفه بأنه علم يشتمل على أخبار حياة النبي صلى الله عليه وسلم من مولده إلى وفاته.

2ـ علم المغازي والسير بين علم التاريخ وعلم الحديث:

وعلم المغازي يتنازعه علم التاريخ من حيث إنه يؤرخ لحياة النبي صلى الله عليه وسلم، وعلم الحديث من حيث إن إثبات أخباره يكون بالأحاديث والآثار المسندة والمرسلة وهي مدار علم الحديث، كما إن كل ما صدر عنه صلى الله عليه وسلم هو من السنة والحديث النبوي كمصدر من مصادر التشريع، قال القنوجي: علم المغازي والسير :أي مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من فروع علم التواريخ، وموضوعه ومنفعته وغايته وغرضه لا يخفى على كل ذي لب، ولكن لما كان ثبوتها بالأحاديث والآثار جعلناها من فروع علم الحديث، وفي هذا العلم مصنفات كثيرة أجلها وأفضلها تصنيف عبد الملك بن هشام ومغازي ابن إسحاق وغير ذلك.

3ـ في بيان أهميته وعناية السلف به:

وقد كان الاهتمام بهذا الفن مبكرا إذ كان الصحابة ومن بعدهم يحفظون المغازي والسيرة النبوية كما يحفظون القرآن، ويعلمونها الصغار، كما قال علي بن الحسين زين العابدين(كنا نُعلِّم مغازي النبي صلى الله عليه وسلم كما نعلم السورة من القرآن)[3] .

وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص(كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعدها علينا، ويقول: هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها.)[4]

وقد كانت عناية ابن عباس في المغازي مبكرة جدا حين كان شابا يطلب العلم بعيد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة، حيث قال عن نفسه: كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار فأسألهم عن مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما نزل من القرآن في ذلك.

وهو أوضح دليل على مدى ارتباط علم المغازي بعلم التفسير ونزول القرآن، إذ عامة أخبار المغازي ورد ذكرها في القرآن، وهو المصدر الأول لها، فاحتاج إلى المغازي لمعرفة أسباب نزولها، ومعرفة تفصيل ما أجمل القرآن ذكره من أخبارها.

ويمكن بيان أهمية علم المغازي والسير في كونه:

أـ التطبيق العملي للإسلام كما مارسه النبي صلى الله عليه وسلم.

ب ـ فيه بيان لما جاء في القرآن من أحكام كثيرة بشأن معاملة من استجابوا للدعوة وهاجروا وما لهم من حقوق ومن لم يهاجروا منهم وكذا معاملة من لم يستجيبوا للإسلام ممن صالحوا وعاهدوا أو حاربوا وقاتلوا وأحكام الحرب والصلح والسلم...الخ

ج ـ البيان لمعاني كثير من آيات القرآن التي لا يمكن فهمها إلا بعد الوقوف على تفاصيل أخبارها في المغازي والسير.

4ـ في أول من صنف في المغازي والسير:

وقد اختلف الأئمة فيمن أول من صنف في المغازي فذهب ابن سعد إلى أن (محمد بن إسحاق أول من جمع مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وألفها...وكان محمد بن إسحاق مع العباس بن محمد بالجزيرة وكان أتى أبا جعفر بالحيرة فكتب له المغازي)[5]

وذهب الذهبي إلى أن أول من صنف المغازي عروة بن الزبير، وكذا قال ابن كثير(كان عروة فقيها عالما حافظا ثبتا حجة عالما بالسير، وهو أول من صنف في المغازي)[6]. بينما ذهب السهيلي إلى أن أول من صنف في السير هو ابن شهاب الزهري.

وذهب الصفدي إلى أن أول من صنف المغازي عروة، وأول من صنف السير ابن إسحاق، حيث قال: فأول من صنف في المغازي عروة بن الزبير رضي الله عنهما، ثم موسى بن عقبة، ثم عبد الله بن وهب، ثم في السير ابن إسحاق.

وفي هذا العلم مصنفات كثيرة أجلها وأفضلها تصنيف عبد الملك بن هشام ومغازي ابن إسحاق وغير ذلك.

وقال الطناحي (في النصف الثاني من القرن الأول الهجري بدأ بعض التابعين في تدوين أخبار السيرة النبوية ومغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويجمع مؤرخو السير على أن أول من كتب في

ذلك هو أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي، المتوفى سنة 93هـ، وقد عاصره وتلاه نفر من التابعين الذين عرفوا بالعناية بالسيرة، وجمع أخبارها، منهم أبان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة 105هـ، ووهب بن منبه المتوفى سنة 110هـ، وعاصم بن عمر بن قتادة المتوفى سنة 120هـ، ومحمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري المتوفى سنة 124هـ، وعبد الله بن أبي بكر ابن محمد بن حزم المتوفى سنة 135هـ) .[7]

والصحيح أنه لا تعارض بين هذه الأقوال، ويمكن الجمع بينها، فإن علم المغازي كان أسبق من علم السيرة في الظهور والتصنيف، فإن أول من صنف في فن المغازي من طبقة التابعين هو عروة بن الزبير، بينما أول من صنف في فن السيرة محمد بن شهاب الزهري، وإن اشتهر كتابه بعد ذلك بالمغازي، فإنه صنف في المغازي أيضا، غير أنه أول من ألف في السير، وقد يكون أبان بن عثمان . وهو شيخ الزهري . قد سبقه إلى ذلك إلا أن كتابه في السير لم يشتهر، وقد يكون صحيفة، وأول من صنف صحيح المغازي موسى بن عقبة، وأول من جمع المغازي والسير هو محمد بن إسحاق، وسيأتي في تراجمهم بيان ذلك وما يؤكده.

وأما نفي أن يكون لهؤلاء الأئمة مصنفات احتجاجا بما جاء عن مالك أنه قال :(لقد هلك ابن المسيب ولم يترك كتاباً، ولا القاسم بن محمد، ولا عروة بن الزبير، ولا ابن شهاب)[8]

فهذا احتجاج فيه نظر من وجوه:

الأول : أنه ثبت ثبوتا قطعيا أن لعروة وللزهري كتبا في المغازي والسير، ولا ينفي ذلك عدم علم مالك بها، على فرض صحة هذه العبارة عنه.

الثاني: أن هذه العبارة مجتزأة من سياق، وهي صحيحة في حق ابن المسيب والقاسم، أما عروة والزهري فلا، فيحتمل أنه قصد ليس لهما كتب في الحديث، أو ليس لهما كتب في الفقه، أو ليس لهما كتب يحدثون منها، بل كانوا يحدثون من حفظهم، وهذا هو السياق الذي أوردها الذهبي فيه.

5ـ طبقات أئمة المغازي والسير:

وقد اشتهر أئمة هذا الفن منذ عصر التابعين ومن بعدهم، واشتهرت طبقاتهم، ومن هو المرجع والحجة فيهم عند الاختلاف في أخبار المغازي والسير، وهذه الطبقات والمراتب بحسب الزمان وبحسب المكان.

ـ طبقاتهم ومراتبهم بحسب الزمان:

وتكاد تتفق كلمة الأئمة على أنهم على طبقتين:

الأولى : طبقة التابعين والحجة والمرجع فيهم ممن صنفوا ابن شهاب الزهري، كما قال ابن عبد البر (وقول ابن شهاب في هذا الحديث عن سعيد بن المسيب (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قفل من خيبر) أصح من قول من قال (أن ذلك كان مرجعه من حنين) لأن ابن شهاب أعلم الناس بالسير والمغازي، وكذلك سعيد بن المسيب ولا يقاس بهما في ذلك) [9]

والثانية : طبقة أتباع التابعين وأتباعهم، والحجة والمرجع في فن المغازي والسير في أهل هاتين الطبقتين أربعة: موسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق، وأبو معشر، والواقدي، كما قال ابن سعد (خلاد بن قيس بن النعمان..ذكر عبد الله بن محمد بن عمارة الأنصاري أنه شهد بدرا مع أخيه خالد بن قيس، ولم يذكر ذلك محمد بن إسحاق، وموسى بن عقبة، وأبو معشر، ومحمد بن عمر، فيمن شهد عندهم بدرا، قال ولا أظن ذلك بثبت، لأن هؤلاء أعلم بالسيرة والمغازي من غيرهم[10] .

وقال ابن سعد أيضا(ولم يروه أحد ممن روى المغازي وأما موسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق وأبو معشر فلم يذكروا سعد بن مالك ولا ابنه سعد بن سعد فيمن شهد عندهم بدرا وهو الثبت عندنا أنه لم يشهد أحد منهما بدرا)[11]

ثم كل من جاء بعد هاتين الطبقتين فهم عيال عليهم، وتبع لهم.

ـ طبقاتهم ومراتبهم بحسب المكان:

كما فصل شيخ الإسلام ابن تيمية في مراتب أهل المغازي والسير بحسب البلدان، وقدم أهل المدينة على غيرهم في معرفة المغازي والسير، ثم أهل الشام، ثم أهل العراق، حيث قال (فإن أعلم الناس بالمغازي أهل المدينة، ثم أهل الشام، ثم أهل العراق، فأهل المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم، وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم، ولهذا عظم الناس كتاب أبي إسحاق الفزاري الذي صنفه في ذلك، وجعلوا الأوزاعي أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار). [12]

وهذه نبذة تاريخية عن مشاهير أئمة المغازي والسير خاصة من ذكر عنهم أنهم صنفوا في هذا الفن، بحسب طبقاتهم الزمانية، واقتصرت على طبقة التابعين، وأتباعهم، وأتباع أتباعهم، أي أهل القرن الأول والثاني، إذ كل من جاء بعد ذلك إنما هم رواة لكتبهم ومصنفاتهم، وعيال على مروياتهم:

الطبقة الأولى : طبقة التابعين:

1. عروة بن الزبير (23 – 93 هـ)

وهو ابن الصحابي الكبير : الزبير بن العوام . ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمُّه هي أسماء بنت أبي بكر الصديق ابنة الخليفة الأول، وهو أحد فقهاء المدينة السبعة بعد الصحابة، وقد سمع الحديث من كثير من الصحابة في المدينة خاصة خالته عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فقد لازمها حتى حفظ كل حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي يقول (ما أجد أعلم من عروة بن الزبير).[13]

وقد اشتهر عروة بعلم المغازي والسنن والتفسير ورواية الشعر، وقد ثبت عنه أنه كان يملي على أبنائه أبواب الفقه والسنن على التوالي كما قال ابنه هشام: كان أبي يدعوني وعبد الله بن عروة وعثمان وإسماعيل إخوتي فيقول: لا تعنتوني مع الناس إذا خلوت فسلوني، فكان يحدثنا يأخذ في الطلاق ثم الخلع ثم الحج ثم الهدي ثم كذا ثم يقول: كروا علي فكان يعجب من حفظي. قال هشام: فو الله ما تعلمنا منه جزءاً من ألف جزء من أحاديثه. وعن هشام بن عروة: أن عون بن عبد الله قال: حدثني عن أبيك ؟ قال: فذهبت أحدثه عن السنن. فقال لا غرائب حديثه .

وقد كان في أول أمره قد أحرق بعض كتبه في الفقه إجلالا للقرآن أن يكون معه كتاب آخر، ثم بعد ذلك كتب كتبه وأملاها على الناس ومنها كتبه في المغازي، كما ثبت عن ابنه هشام بن عروة أن أباه أحرق كتبا له فيها فقه ثم قال: لوددت أنى كنت فديتها بأهلي ومالي.

وهو أوَّل من صنف كتاباً في مغازي النبي صلى الله عليه وسلم، وقد روى عنه المغازي وأخذها عنه كثير من الأئمة أشهرهم: ابنه هشام بن عروة، وابن شهاب الزهري، وأبو الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل القرشي الأسدي يتيم عروة بن الزبير، قال الحافظ ابن حجر: (ورد عليهما بما أخرجه ابن لهيعة في المغازي التي يرويها عن أبي الأسود يتيم عروة عنه.(

وقال السخاوي:(محمد بن عبد الرحمن بن نوفل بن الأسود بن نوفل بن خويلد بن أسد بن عبد العزي بن الأسود القرشي: الأسدي، مدني الأصل، يتيم عروة، لأن أباه أوصى به إليه، نزل مصر وحدث بها بكتاب المغازي لعروة بن الزبير، وعن علي بن الحسين ..وعنه حيوة بن شريح وشعبة ومالك وابن لهيعة وآخرون، وكان أحد الثقات المشاهير، قال أبو حاتم: ثقة، وذكره ابن حبان في ثقاته، خرج له الأئمة وذكر

في التهذيب، وتاريخ البخاري، وقال: مدني الأصل، سمع ابن الزبير، وعنه هشام بن عروة والزهري وحيوة ومالك، وقال ابن حبان:روى عنه مالك وأهل المدينة، وقدم مصر فيما قاله ابن لهيعة سنة ست وثلاثين، والأشبه قول الذهبي سنة بضع وثلاثين ومائة.(

فهو أشهر من روى نسخة المغازي مفردة عن عروة، وحدث بها في مصر، بخلاف الزهري الذي ألف كتابا في المغازي. كما سيأتي. وضمنه مغازي شيخه عروة ومرويات غيره من شيوخه، وكذا ابنه هشام الذي روى كتب أبيه كلها السنن والمغازي، ولهذا ذكر الأئمة مغازي أبي الأسود عن عروة كالحافظ ابن حجر فقال في إثبات بعض الصحابة وشهودهم للمغازي وكذا ذكره موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب، وأبو الأسود عن عروة وسائر من صنف في المغازي.

وقد أخرج ابن إسحاق نحو 40 رواية من مغازي عروة بن الزبير، بعضها عن الزهري عن عروة، وبعضها عن هشام وعن أخيه يحي بن عروة عن أبيه، وبعضها عن يزيد بن رومان، وبعضها عن صالح بن كيسان .

2. عكرمة مولى ابن عباس (25 . 105 هـ):

وهو من أئمة هذا الفن وأعلمهم به، وعليه مدار كثير من أخبار المغازي والسير، وقد أخذ هذا العلم عن ابن عباس كما أخذ عنه التفسير، قال أبو الشعثاء هذا عكرمة مولى ابن عباس، هذا أعلم الناس، قال سفيان الوجه الذي غلبه فيه عكرمة المغازي، وكان إذا تكلم فسمعه إنسان قال كأنه مشرف عليهم يراهم .

قال الطحاوي (وكان من الحجة عليهم في ذلك لمخالفهم أن عكرمة مولى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ومحمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، وعليهما يدور أكثر أخبار المغازي، قد روي عنهما ما يدل على خروج أهل مكة من الصلح الذي كانوا صالحوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحداث أحدثوها.(

ولم يذكروا لها كتابا في هذا الفن مع أنه من أئمته بلا نزاع.

3. أبان بن عثمان بن عفان (25 . 105 هـ):

وهو كبار التابعين وثقاتهم، وأحد فقهاء المدينة العشرة، وكان والي المدينة لعبد الملك بن مروان، وقد روى عنه الزهري، وأخذ عنه المغيرة بن عبد الرحمن المغازي، فقد جاء عنه (أنه لم يكن عنده خط

مكتوب من الحديث إلا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من أبان بن عثمان فكان كثيرا ما تقرأ عليه وأمرنا بتعليمها.)[14]

وهو دليل على أن أبان بن عثمان كان قد كتب مبكرا المغازي في كتاب أو صحيفة، وعنه أخذها المغيرة بن عبد الرحمن.

وأخيرا، ومن خلال هذا الاستعراض الموجز لطبقات علماء المغازي والسير يظهر ما يلي:

1. أن علم المغازي والسير من أوائل العلوم والفنون التي صنف فيها المسلمون، وقد ظهرت بواكيرها . كمغازي أبان وعروة . في النصف الثاني من القرن الأول ما بين 70 إلى 80 هـ.

2. وأن أكثر أهل الأمصار عناية بعلم المغازي والسير هم أهل المدينة، وهم عروة بن الزبير، وأبان بن عثمان، وشرحبيل بن سعد، وعاصم بن قتادة، وابن شهاب الزهري، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق، وأبو معشر نجيح بن عبد الرحمن، والواقدي، فهؤلاء هم الذين شهروه وهم الذين نشروه، وعلى كتبهم المعول والمعتمد.

3. وأن أهل الشام أكثر عناية بهذا الفن بعد أهل المدينة كالوليد بن مسلم وأبي إسحاق الفزاري وعبد الأعلى بن مسهر ويحيى بن سعيد الأموي.

4. كما لم يخل بلد من علماء شاركوا في العناية بهذا الفن، ففي مكة عكرمة مولى ابن عباس، وفي البصرة سليمان التيمي، وفي الكوفة عامر الشعبي، وفي المدائن وبغداد أبو الحسن المدائني، وفي اليمن وهب بن منبه ومعمر بن راشد.

5. وأن أول من صنف المغازي عروة، وأول من صنف السير الزهري، وأول من جمع بينهما محمد بن إسحاق، وأول من صنف صحيح المغازي موسى بن عقبة، وأول من صنف في اليمن وهب بن منبه، وفي الكوفة الشعبي، وفي البصرة سليمان التيمي.

6. كما أن أعلم الناس بهذا الفن من أهل الطبقة الأولى الزهري، ومن أهل الطبقة الثانية ابن إسحاق، ومن أهل الطبقة الثالثة الواقدي.

7. وقد ثبت بأن عامة أئمة المغازي حفاظ أثبات ثقات في فنهم، ومن تكلم فيه أهل الحديث فإنما تكلموا فيه من جهة فنهم وهو رواية الحديث النبوي، وليس فيهم من تركوه إلا الواقدي، والصحيح أنه متروك في

الحديث، وهو إمام في المغازي وثقه أبو عبيد القاسم بن سلام ويزيد بن هارون وعبد العزيز الدراوردي وغيرهم.

8. وأن ما اتفق عليه موسى بن عقبة وابن إسحاق وأبو معشر والواقدي من أخبار المغازي والسير، فهو حجة ومحل اتفاق بين أهل المغازي، إذ هم أعلم بهذا الفن من غيرهم فاتفاقهم حجة كما نص عليه ابن سعد فيما سبق بيانه في طبقة أتباع التابعين.

9. كما ثبت أن مغازي عروة، ومغازي الزهري محفوظة، جمعها وضمنها ابن إسحاق كتابه المغازي والسير، كما ضمنها معمر بن راشد كتابه المغازي، الذي يرويه عبد الرزاق، وكذا ضمنها غيرهم من الأئمة الذين جاؤوا بعدهم.

10. كما بقيت نسخة المغازي لعروة مفردة من رواية ابن لهيعة عن أبي الأسود يتيم عروة، وقد ذكرها ونقل منها الأئمة في مصنفاتهم كالحافظ بن حجر.

ـ نموذج من سيرة ابن هشام:

ورد في سيرة ابن هشام:

تَجْهِيزُ الرَّسُولِ لِفَتْحِ مَكَّةَ:

وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجَهَازِ، وَأَمَرَ أَهْلَهُ أَنْ يُجَهِّزُوهُ ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى ابْنَتِهِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَهِيَ تُحَرِّكُ بَعْضَ جَهَازِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَيْ، بُنَيَّةُ: أَأَمَرَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُجَهِّزُوهُ ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَتَجَهَّزْ، قَالَ: فَأَيْنَ تَرَيْنَهُ يُرِيدُ ؟ قَالَتْ: (لَا) وَاَللَّهِ مَا أَدْرِي. ثُمَّ إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَ النَّاسَ أَنَّهُ سَائِرٌ إلَى مَكَّةَ، وَأَمَرَهُمْ بِالْجِدِّ وَالتَّهَيُّؤِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ خُذْ الْعُيُونَ وَالْأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ حَتَّى نَبْغَتَهَا فِي بِلَادِهَا فَتَجَهَّزَ النَّاسُ

شِعْرُ حَسَّانَ فِي تَحْرِيضِ النَّاسِ فَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ يُحَرِّضُ النَّاسَ وَيَذْكُرُ مُصَابَ رِجَالِ خُزَاعَةَ : [ص: 398]

عَنَانِي وَلَمْ أَشْهَدْ بِبَطْحَاءِ مَكَّـــةٍ رِجَالُ بَنِي كَعْبٍ تُحَزُّ رِقَابُهَـــا

بِأَيْدِي رِجَالٍ لَمْ يَسُلُّوا سُيُوفَهُـــمْ وَقَتْلَى كَثِيرٌ لَمْ تُجَنَّ ثِيَابُهَـــــا

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَنَالَنَّ نُصْرَتِي سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَحْزُهَا وَعُقَابُهَا

وَصَفْوَانُ عَوْدٌ حَنَّ مِنْ شُفْرِ اسْتِهِ فَهَذَا أَوَانُ الْحَرْبِ شُدَّ عِصَابُهَـا

فَلَا تَأْمَنَنَّا يَا ابْنَ أُمِّ مُجَالِـــــدٍ إِذَا أُحْتُلِبَتْ صَرْفًا وَأَعْصَلَ نَابُهَا

ولاَ تَجْزَعُوا مِنَّا فَإِنَّ سُيُوفَنَـــــا لَهَا وَقْعَةٌ بِالْمَوْتِ يُفْتَحُ بَابُهَـــا

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : قَوْلُ حَسَّانَ : أيدي رِجَالٍ لَمْ يَسُلُّوا سُيُوفَهُمْ يَعْنِي قُرَيْشًا ؛ وَابْنُ أُمِّ مُجَالِدٍ يَعْنِي عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ [14] .

الهوامش:

1 ـ ابن منظور، لسان العرب مادة سير، ومادة غزا

2 ـ قاسم القونوي، أنيس الفقهاء، تحقيق الكبيسي، دار الوفاء. جدة، ط 1 1406 ، ص 182.

3 ـ لخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق د.محمود الطحان، مكتبة المعارف – الرياض ط 1403 ص 230

4 ـ المرجع نفسه ص 231

5 ـ محمد بن سعد، الطبقات، تحقيق محمد عبدالقادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 سنة 1410هـ. الجزء المتمم ص 401

6 ـ ابن كثير، البداية والنهاية دار الكتب العلمية ، بيروت، 119/9

7 ـ محمود الطناحي، الموجز في مراجع التراجم، ط 1 سنة 1406هـ، ص 32.

8 ـ الذهبي، تذكرة الحفاظ، تحقيق عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 سنة 1998 م. 1/ 84

9 ـ البداية والنهاية 242/3.

10 ـ محمد بن سعد، الطبقات، 368/2.

11 ـ الطبقات 625/3.

12 ـ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية مجموع الفتاوى، جمع ابن القاسم، طبعة سنة 1412هـ عالم الكتب، الرياض ص 68

12 ـ محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، الرسالة، بيروت، ط9 سنة 1413هـ. 425/4

13 ـ طبقات ابن سعد 210/5

14 ـ .سيرة ابن هشام، تحقيق طه سعد، دار الجيل، بيروت، ط سنة 1411 هـ، ص 387

فن الترسل في العصر الجاهلي وصدر الإسلام

مقدمة:

لقد تقاسم النثر الفني في العصور القديمة جنسان أدبيان هما: الخطب والرسائل؛ فإذا ما ذكر، انصرفت الأذهان إليهما دون غيرهما نظرا لما يتميزان به من حضور متميز، وما يتبوآنه من منزلة رفيعة بين أجناس الأدب وفنونه؛ هذا بالإضافة إلى ما اضطلعا به من أدوار ووظائف في الحياة الأدبية والاجتماعية والدينية والسياسية والإدارية.

وهكذا يندرج ضمن هذا النثر الفني ما يصطلح عليه بـ"أدب الرسائل" الذي يشكل جنسا أدبيا قائما بذاته، إذ تنضوي تحته هو الآخر أنواع من الرسائل المختلفة أسلوبا وموضوعا، والمتنوعة غرضا ومقصدا، والمتفاوتة جمالا وتأثيرا. هذا فضلا عما راكمه "أدب الرسائل"، عبر مراحل تطوره، من قواعد و معايير و خصائص.

إن وجود الرسائل في أرقى أشكالها وأكملها—أي الشكل التدويني—يرتبط ارتباطا وثيقا بوجود الخط وانتشار الكتابة بين الناس، وتوفُّر المواد التي تُستعمَل فيها عادة، ولو لم يكن الخط لبقي الشكل الشفوي، والآثار الشفوية بطبيعتها سريعة الزوال، إذ ليس في مقدرة الذاكرة أن تحفظها وترويها للأجيال. فبدت الحاجة إلى الكتابة وتخليد الآثار بها .

ـ الكتابة في العصر الجاهلي:

الكتابة في اللغة مصدر «كتب»، يقال: كتب، يكتب، كتبا وكتابا، ومعناها «الجمع»، و سُمّي الخط كتابة، لجمع الحروف بعضها إلى بعض. وقد تُطلَق الكتابة على العلم، ومنه قوله تعالى: (أَمْ عِندَهم الْغَيْبُ فَهم يَكْتُبُونَ)أي يعلمون. وجاء في «مصادر الشعر الجاهلي»:«إن عرب الجاهلية قد عرفوا الكتابة بالحروف العربية منذ مطلع القرن الرابع للميلادى، وكتبوا بهذا الخط العربي ثلاثة قرون قبل الإسلام على أقل تقدير[1]

ومن البراهين التي تدلّ على وجود الكتابة بين الجاهليين ومعرفتهم بها، ورود بعض المفردات في أشعارهم أو كلامهم واستعمال الألفاظ التي تدلّ على الكتابة مثل «القلم» ،و«الدواة »، و«المداد»، و«اللوح»، و«الصحف»، و«الكتب»، و«العسيب»، و«الرق» و«الكتاب»، و«الزبور» وغيرها. أما

أدوات الكتابة في العصر الجاهلي فكانت على ضربين؛ الأول:المواد التي كانوا يكتبون عليها، والثاني: المواد التي كانوا يكتبون بها.

والمواد التي كانوا يكتبون عليها ضروب شتى، منها: الجلد و كانوا يسمّونه «الرق» و«الأديم»، و«القضيم». و قد ورد ذكرها في الشعر الجاهلي، كقول طرفة بن العبد:

كسطور الرق رقَّشه بالضحى مُرقِّشٌ يَشِمُه

والقماش- وهو إما حرير وإما قطن، ويطلقون على الصحف إذا كانت من القماش«المهارق»؛ ومفردها«المهرَق » وهذا الضرب من مواد الكتابة يحتاج إلى إعداد خاص، فكان نادرا غالي الثمن ولذلك كانوا لا يكتبون فيها إلا الجليل من الأمر- مثل كتابة الدين، أو العهود ونحوها-. كما قال الحارث بن حلزّة اليشكري:

واذكروا حِلف ذي المِجازِ وما قُدِّم فيه العهودُ والكُفَلاءُ

حَذ َر الجورِ والتَّعَدّي وهل ين قُصُ ما في المهارق الأهواءُ؟

والنبات- وأشهر أنواعه؛ «العسيب» وجمعه «عسب»، وهو جريدة النخل المستقيمة يكشَطُ خوصُها . فمن الشعر الجاهلي الذي ورد فيه ذكر العسيب قول امري ء القيس:

لمن طَلَلٌ أبصرتة فَشجاني كخطّ زبورٍ في عسيبِ يمان

والعظام- وأشهر أنواع العظام التي كانوا يكتبون عليها «الكتف» والأضلاع وكان يكتَب عليها الوحي. واستعمل الجاهليون كتف الحيوان – وهو عظم عريض في أصل كتف الحيوان- للكتابة عليه، و« قد كتب عليه كتبة الوحي،... ولما كانت العظام مادة مبذولة ميسورة في استطاعة الكاتب، الحصول عليها بغير ثمن، وهي صالحة للكتابة بكلّ سهولة على شكلها الطبيعي، أو بعد صقل وتشذيب قليلَين ِ،لذلك استعملها الكتّاب بكثرة، فكانت مادة مهمة استعملها كتبة الوحي في تدوين القرآن.» [2]ولقد بقي العظم مادة من مواد الكتابة حتى العصر العباسي الأول.

ومن الأدوات الأخرى نذكر : الحجارة، والورق، والقرطاس- وهو برد مصري استعلمت للكتابة عليها، والجمع قراطيس. وقد وردت لفظة قرطاس وقراطيس في القرآن الكريم وفي الشعر.

هذا فيما يتعلق بالمواد التي كان العرب يكتبون عليها كتاباتهم. وأما ما يُكتب به، فهو القلم والحبر.

-1القلم:

هو من أدوات الكتابة المذكورة عند الجاهليين، وقد ذكر في القرآن الكريم، وأُقسم به في سورة القلم وعُظّم شأنه في سورة العلق. وذلك إظهارا لخطر القلم، وثمرات الأقلام في الحضارة الإسلامية منذ الوهلة الأولى، ولبيان قيمته في التعليم عند البشر، وهو مرتبط أصلا بالخط الذي كان بحد ذاته نقلة نوعية في الفكر الإنساني. ولولا الخط والقلم لما حُفظت آثار الماضين.

ولفظة القلم من الألفاظ المعربة عن أصل يوناني، فهو«قلاموس» في اليونانية، ومعناها«القصب»،لأن اليوناينين اتخذوا قلمهم منه.[3]

و قد ذكره الشعراء في قولهم، كقول عدي بن زيد:

ما تبَينُ العينُ من آياتِها غيرَ نؤي مثلَ خطٍّ بالقلم

-2الحبر:

يعرَف أيضا بالدواة و المداد، ويصنع من مواد متعددة تترك أثراً في المادة التي يكتب عليها وقد ذكر في شعر الجاهليين كما قال عبدالله بن عَنَمة:

فلم يبقَ إلاّ دمنه ٌ ومنازلُ كما رُدَّ في خطّ الدواة مدادُها

ـ موضوعات الكتابة في العصر الجاهلي:

موضوعات الكتابة في العصر الجاهلي كانت كثيرة متنوعة، وقد كان القوم آنذاك يكتبون كثيراً من شؤون حياتهم وألواناً متعددة من الموضوعات التي يفرضها عليهم نشاطهم العملي أو العلمي والوجداني. والعرب استخدموا الكتابة في العصر الجاهلي لأغراض سياسية وتجارية ولكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة، ولا توجد في كتاباتهم صورة فنية. [4]

وأول هذه الموضوعات التي كان عرب الجاهلية يدونونها، الكتب الدينية؛ ولعل الموضوع الثاني الذي كان عرب الجاهلية حريصين على كتابته، هو كتابة العهود والمواثيق، والأحلاف التي يرتبطون بها فيما بينهم أفرادا وجماعات.

والموضوع الثالث الذي لعله يكون أكثر الموضوعات اتساعا، هو الصكوك التي كان عرب الجاهلية يكتبون فيها حساب تجارتهم وحقوقهم على غيرهم.

ولما كانت الحياة الاقتصادية تأخذ المكانة الأولى بين هموم العرب آنذاك، وكان بعضهم قد اتخذوا التجارة مصدراً للرزق، وهي بحاجة إلى الكتابة لتقييد حساباتهم، أو صكوك البيع والشراء، أوالدين والوفاء به. فقد انتشر هذا النوع من التقييد بين التجار منهم خاصة لحفظ حقوقهم على الناس، إذ لا مجال في مثل هذا النوع من المعاملات للمشافهة، مهما بلغ أحد الطرفين من الثقة بالطرف الآخر، والأمانة، أوقوة الذاكرة. ومما وصل إلينا من أمثال هذه العقود، نص واحد ذكره ابن النديم، إنه كان في خزانة المأمون بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم ونصُّه: «ذكر حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميرى من أهل وزل صنعا، عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة، ومتى دعاه بها أجابه، شهدالله والملكان». [5]وبما أن مكة كانت مركزاً تجارياً وكان كثير من القوم في ذلك الوقت تجاراً فكان من الطبيعي أن يكثر عندهم هذا الضرب من الكتابة كي يحفظوا به حقوقهم.

والموضوع الأخير الذي كان شائعاً بينهم آنذاك، هو كتابة الرسائل بين الأفراد يحملونها أخبارهم ويفهمونها ما تتطلبه شؤون حياتهم.

ـ الترسل في العصر الجاهلي:

أ- المعنى اللغوي العام للكلمة:

ورد في المعاجم العربية قولهم: ترسَّل في قراءتة؛ إذا اتأد وتمهل وتوقّر فيها أو رتلها، والترسل في الكلام؛ التوقر، والتفهم، والترفق من غير أن يرفع المرء صوته شديداً. والترسل في القراءة والترسيل واحد: وهو التحقيق بلا عجلة. والترسل؛ 1- مصدر ترسل: أ-أنشأ رسالة ب- أتي بكلامه مرسلاً غير مقيد بقافية أو بسجع، 2- فن انشاء الرسائل.

ب- المفهوم الاصطلاحي :

ورد استعمال كلمة "الترسل" في كتابات الأدباء، والنقاد، والبلاغيين، في القرنين الرابع، والخامس الهجريين على وجه الخصوص بمعني كتابة الرسائل، وكانت أقدم اشارة صريحة إلى هذا الاستعمال بهذا المفهوم الاصطلاحي الذي يدلّ على هذا النوع، تلك التي وردت عند "ابن وهب الكاتب"من القرن الرابع، حيث يقول: «الترسل من: ترسلت، ترسلا وأنا مترسل، كما يقال: توقفت بهم، أتوقف، وأنا متوقف. ولا يقال ذلك إلا فيمن تكرّر فعله في الرسائل. ويقال لمن فعل ذلك مرة واحدة: أرسل، يرسل، إرسالا، وهو مرسل، والاسم الرسالة. أو راسل، يراسل، مراسلة، وهو مراسل، وذلك إذا كان هو ومن يراسله قد اشتركا

في المراسلة». [6] ونفهم من هذا القول، بأن معنى الترسل يكون كتابة الرسائل بكثرة ويكون هذا النوع الادبي عادة في دواوين الدولة خدمة الخلفاء والوزراء و الولاة والمتصرفين في إدارة شؤون الخلافة والمجتمع في شتى المناصب الرفيعة.

وقد استعمل لفظ" الترسل" في القرن الخامس الهجري، مصطلحاً دالا على مفهوم "كتابة الرسائل"، كما قال المرزوقي:« إن المقصود من الترسل هو "كتابة الرسائل"، إذ كان مورده على أسماع مفترقة من خاصي وعامي، وأفهام مختلفة من ذكي وغبي، و للمترسل أمور لابدّ من مراعاتها: منها تبيين مقادير من يكتب عنه وإليه حتى لا يرفع وضيعا ولا يضع رفيعا، وأن يعلم أوقات الإسهاب والتطويل، والايجاز والتخفيف، فقد يتفق ما يحتاج فيه إلى الإكثار حتى يستغرق في الرسالة الواحدة أقدار القصائد الطويلة ويتفق أيضا ما تغني فيه الإشارة ويجري مجرى الوحي في الدلالة». [7]وفي القرن الثامن الهجري ألّف «شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي» (م 725 هـ)، صاحب ديوان الإنشاء بدمشق، كتاباً تحت عنوان «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» ومضمونه يدور حول كتابة الرسائل الديوانية.

وفي أوائل القرن التاسع للهجرة ألّف «القلقشندي» (م 821هـ)كتابه الضخم «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» في هذا الموضوع، وكانت التسمية الغالبة على كتابة الدواوين في عصره هي صناعة الإنشاء، والترسل والمكاتبات أعظم كتابة الإنشاء وأعمها من حيث إنه لا يستغني عنها ملك ولا سوقة وهو يرى أن المقصود الأعظم من النثر هو الخطب والترسل.

وإن أبرز المعاني اللغوية لكلمة الترسل، هو التمهل، والترفق، يكون ذا صلة عميقة وقوية بجوهر المعنى الإصطلاحي للترسل، أي كتابة الرسائل وفن إنشائها، إذ إن هذا المعنى يحتوي ذلك المعنى اللغوي، لأن كتابة الرسالة يغلب عليها أن تتسم بتمهل وترفق من الكاتب .

فن الترسل في الجاهلية:

أ– وجودها:

عرف الإنسان منذ اكتشافه الرسائل وسيلة للاتصال والإبلاغ عن بعد، ثلاثة أشكال للتعبير عن مضمونها وإبلاغه إلى الآخر. وتمثل هذه الأشكال، ثلاث مراحل تاريخية أساسية مرت بها الرسائل في طريق تطورها.

واستعمال الرسائل بأشكالها المختلفة، لازمة من لوازم الحياة التي لا يمكن الفكاك منها، فالكتابة عرفها العرب في العصر الجاهلي وكانت بينهم رسائل، لكنها ضاعت لأسباب عديدة؛ منها: ضعف انتشار الكتابة، وندرة أدواتها، وقلة استعمالها، مما يضعف الاعتماد على الكتابة لتكون أداة عملية سهلة لكتابة الرسائل وتبادلها في المجتمع الجاهلي، ومنها خلو الكتابة العربية في الجاهلية من النقط والإعجام، مما كان يدعو الكاتبين إلى اعتماد الإيجاز في الكلام، فهذه العوامل أدت إلى قلة استعمال الرسائل المدونة.

وقد شكّ بعض الباحثين الذين تطرقوا إلى دراسة النثر الجاهلي ك «طه حسين» الذي ينفي كلية وصول أي نموذج من النثر الجاهلي. [8] و«زكي مبارك» حيث يقول: «إن أكثر ما نُسِب إلى الجاهليين غير صحيح.» ويواصل كلامه ويقول في موضع آخر: «والخطب والوصايا والرسائل التي نُقلت إلينا على أنها جاهلية هي موضع شك». [9]

ب– أشكالها: عرف الجاهليون جميع أنواع الرسائل، وهي: الإشارية، والشفوية، والتدوينية. نشير هنا إليها بصورة موجزة.

أ– الرسائل الإشارية:

قد عرفت الأمم القديمة والحديثة أنواعا شتى من الإشارات، واستعملها الأفراد وسيلة من وسائل الاتصال والإبلاغ والتفاهم وتُعدّ الرسائل الإشارية من أقدم أشكال الرسائل من الناحية التاريخية وكانت هذه الرسائل عند العرب على شكلين؛ الأول: الشكل المادى– وكان من أبرز أنواعه إشعال النيران في أعالي الجبال وعلى المرتفعات المشرفة، اعلاماً بشيء ما يتفق عليه عادة بين طرفين؛ يكون أحدهما مرسِلاً والآخر متلقياً، فإذا أشعل المرسِل هذه النيران، فهم منه المتلقي المعنى المصطلح عليه بينهما.

وروي أن يوما معدودا من أيام العرب يُعرَف بـ «يوم خزازى»، واجتمعت قبائل ربيعة ومضر، وعليها كليب بن ربيعة التغلبي، فتوافوا بخزازى–وهو اسم جبل–لقتال جيش من حمير يقوده صهبان. فوجه كليب السفاح بن عمرو أمامه، وأمره إذا التقى بالقوم أن يوقدوا نارا علامة جعلها بينه وبين صهبان، فسار السفاح ليلا حتى وافى معسكر الملك بخزازى فأوقدوا نارا، فأقبل كليب في المجموع نحو النار، فوافاهم صباحا، فاقتتلوا فقُتل الملك صهبان، وانفضت جموعه. [10] وتعدّ النار في الليل من أهم الرسائل البصرية، ولذا كان أجواد العرب في الجاهلية يوقدون النار على شرف من الأرض ليهتدي بها الساري إلى بيوتهم ليَفْرُوه و يقوموا بحقه من الضيافة.

والثاني- الشكل اللغوي الذي يعتمد الرمز وسيلة لنقل معانية، وهو من أنواع الإشارة، إذ يكون ظاهر الكلام فيه عاديا ساذجا، بل يدل أحيانا على هذيان المرسل إلا أن يكون مضمونه عميقا ويحتاج إلى رجل فطن ليستخرج منه المغزى المراد به.

-2الرسائل الشفوية:

أتى هذا الشكل مرحلة تالية بعد الشكل الإشاري، واتسع في غياب الخط والتدوين وموادهما، لأنه يعتمد بطبيعته على الألفاظ اللغوية التي تؤلف فيما بينها كلاما مفهوما يحمله رجل بعد أن يحفظه من المرسل ليبلغه إلى المرسَل إليه بنصّه الحرفي الذي قاله المرسِل أو معانيه الجوهرية التي أرادها المرسِل إن أمكن، وهذا أمر نادر الوقوع عادة. وعرف العرب نوعا من التاريخ الشفهي، فقد كانت القبائل تروي أيامها، وحروبها وانتصاراتها لتفخر بها على القبائل الأخرى. وكانت الرسائل النثرية الشفوية أكثر حظا في الدوران بين الناس بسبب قلة انتشار الرسائل المدونة وشكوك الباحثين في صحة تلك الرسائل المدونة. والقاعدة في نقل رسائل ذلك العصر كانت المشافهة، ولا شك في أن المشافهة لا تكفي لحفظ النصوص النثرية ونقلها من جيل إلى جيل، لصعوبة ذلك على الذاكرة، ولاختلاطها بالكلام اليومي للمرء، فأقبل العرب إلى كتابة الرسائل على شكلها التدويني.

-3الرسائل التدوينية:

يعد هذا الشكل، المرحلة الثالثة في تاريخ تطور وسيلة الإبلاغ من طريق الرسائل، ولابد من أن يكون ظهوره مرافقا للبدايات الأولى لنشأة الخط، وازدهار استعماله وموافقا لاختراع الإنسان مواد الكتابة التي تيسّر وضع هذه الوسيلة المهمة في خدمة التواصل والتفاهم المشترك بين البشر أفراداً وجماعات، ومن المسلم به أن الرسائل التي وصلت إلينا من هذا العصر تكون خلاصة لمضمون الرسائل الشفوية وهذا الأمر يخرجها من نوع الوثائق المؤكدة التي قد تنفع في التاريخ للعصر الذي نسبت إليه. يضاف إلى ذلك عدم الكتابة آنذاك ولذلك قد سقط عدد كبير من الرسائل في ذلك العصر إلا ما جمعه أحمد زكي صفوت في كتابه وسماه جمهرة رسائل العرب.

وظلت الرسائل المدونة أطول بقاء من الرسائل الشفوية ويمكن روايتها ونقلها من جيل إلى جيل، لأن الكتابة كفيلة بحفظها، وهي لذلك أدق رواية وأوثق مضموناً من الشكل الشفوي.

إذن كان الترسل العربي موجوداً في العصر الجاهلي وبأسمى أشكال التعبير الأدبي آنذاك وهو الشعر. وكانت الرسائل الشعرية تمثل الوجه الحقيقي الأصيل للترسل الجاهلي، إذ غلبت الأمية في الجاهلية على العرب، فاعتمدوا لذلك في تواصلهم وتفاهمهم عن بعد على ما سهل قوله وحفظه وتداوله في البوادى والحواضر على حد سواء، فكانت الوسيلة المثلى لتحقيق هذه الغاية آنذاك هو الشعر الذي ذكر القدماء منزلته الرفيعة في الحياة الثقافية للعرب.

وكان للعرب في الجاهلية بعض التقييدات الشعرية القليلة، إلا أنها لم تتحول إلى حركة تدوين حقيقي منظم للتراث الشعري آنذاك، وأبرز هذه التقييدات– تقريباً– كانت المعلقات. وسبق القول عن وجود الكتابة بين الجاهليين، لكن هذا لا يعني بأن كل عربي آنذاك كان يعرف الكتابة وإنما الكتابة كانت أمرا معروفا عندهم إلا أن الأمية كانت اكثر شيوعا و انتشارا. فقد عُرف بينهم من يكتب لهم ولو بكتابة ساذجة وكان العرب قبل الإسلام يهتمون بالكتابة واستعملوها في شؤون الحياة، كتدوين العقود والمواثيق، والوثائق السياسية والتجارية وشؤون الأدب والشعر وكل جوانب الحياة، فلم تكن الأمة أمية بمعنى أنها تجهل القراءة والكتابة، فإن نزول القرآن بالعمق الفكري والأسلوب البليغ يبيّن أن هناك أمة لديها القدرة على فهمه وحمل رسالته.

2ـ الترسل في عصر صدر الإسلام:

هو العصر الثاني من عصور اللغة العربية. وتتحدد بداية هذا العصر الأدبي بظهور الدعوة الإسلامية وانتشارها وتوحيد القبائل العربية المتنافرة ويفتتح هذا العصر ببعثة النبي محمد (ص) في أوائل القرن السابع الميلادي وبالتحديد عند استقرار دولة الإسلام في المدينة سنة 622م، بداية التاريخ الهجري إلى انتهاء الخلافة الراشدة سنة (661م= 41هـ)

إذن فهو عصر قصير المدة، إلا أنه فائق الأهمية؛ لما تم فيه من أحداث أثرت في مجرى الحياة العربية وتطورها، فكان ذلك خاتمة للعصر الجاهلي وفاتحة للعصر الجديد في تاريخ الأدب العربي.

ـ أثر الإسلام في الحياة الأدبية:

أحدث ظهور الإسلام تحولاً جذرياً في حياة الأمة العربية ونقلها من طور التجزئة القبلية إلى طور التوحد في إطار دولة عربية تدين بالإسلام وتتخذ القرآن الكريم مثلاً أعلى، وكان لابد لهذا الحدث العظيم من أن يعكس صداه القوي في الحياة الأدبية لهذه الأمة.

وكان للإسلام اثر كبير في ازدهار النثر العربي ولاسيما الخطابة والترسل، و قد دعا قيام الدولة الإسلامية واتساع سلطانها إلى الاستعانة بالكتابة والكتّاب، وكانت الكتابة محدودة الانتشار في العصر الجاهلي، فاتسع لها المجال في صدر الإسلام. فإن قيام الدولة الإسلامية استدعى وجود كتّاب يوجهون الرسائل إلى العمال والقبائل في مختلف أقطار الدولة، فكان للرسول (ص) كتّاب كما كان لخلفائه وولاتهم من بعده كتّابهم.

الكتابة في صدر الإسلام :

قد انتشرت الكتابة العربية مع انتشار الإسلام وخرجت من الجزيرة العربية في كل الأنحاء.ولقد ساعد النبي(ص) على نشر الكتابة وتعليمها، فبعد غزوة بدر وافق على اطلاق سراح كل أسير تلقاء أن يعلم الكتابة والقراءة لعشرة من صبيان المسلمين. وجعل فدية أسرى بدر أن يعلموا المسلمين الكتابة. وأظن أن هذا الأمر دليل على وجود مجموعة كبيرة من الأسرى يعرفون القراءة والكتابة، وأنها- الكتابة- كانت شائعة بين العرب قبلها.

وكانت الكتابة في عهد الرسول (ص) تشمل شيئين: أولهما: وهو الأهم، كتابة الوحي، ويخبرنا الجهشياري بأن: «علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان كانا يكتبان الوحي، فإن غابا كتبه أبي بن كعب، وزيد بن ثابت». [11] والثاني: تدوين الرسائل التي كان الرسول (ص) يكتبها للملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام، وكذلك كتابة العهود والمعاهدات. وكان الرسول (ص) والخلفاء الراشدون من بعده يستخدمون الكتابة في شؤونهم بعد أن ازدادت الدواعي إليها في شتى الأغراض الدينية والسياسية والإخوانية وغيرها، واستجدت أحداث تطلبت قدراً كبيرا من الرسائل، وبخاصة تلك الأحداث التي صاحبت الدعوة إلى الدخول في الإسلام. واقتضي تبليغ الدعوة ونشرها من الرسول (ص) مكاتبة القبائل والملوك العرب والأعاجم، وعقد العهود والمواثيق مع عدد منهم. فارتقت الكتابة واتسع نطاقها وشاعت كثيراً حتى غدت الفن الأدبي الأكثر أهمية وانتشاراً. و نهض فن الرسائل بدور كبير مع تطور حياة المسلمين الدينية والعقلية والاجتماعية و السياسية. فنرى أن الكتابة تطورت تطوراً واسعاً في هذا العصر، فقد تعددت الموضوعات إذ إن أدب الرسائل كان وليد الحاجة، ولذا تنوعت موضوعاتها تبعاً لتلك الحاجة. وازدادت الحاجة إلى الكتابة للتطور الذي رافق الحياة الإسلامية الجديدة في آفاقها السياسية والاجتماعية والفكرية. فأصبحت الكتابة من الوسائل المهمة لنشر الدعوة الإسلامية ومن الدعائم الأساسية لتنظيم المجتمع الإسلامي وبنائه.

ـ ميزات الكتابة في صدر الإسلام:

من الظواهر الإسلامية- في كتابتهم- وجود كلمة «بسمالله» على المسكوكات الإسلامية وقد كان أول من افتتح الكتابة بها هو رسول الله (ص)، إذ كان يفتتح الكتاب بقوله: «باسمك اللهم» ثم تحول فافتتح الكتاب ببسم الله.

روي عن الشعبي«أن رسول الله (ص) كتب أربعة كتب، في الأول: باسمك اللهم، فنزلت «هود» و فيها «بسمالله مجراها و مرساها» و كتب في الثاني «بسمالله» فنزلت بنو اسرائيل و فيها «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن» فكتب في الثالث «بسمالله الرحمن» ثم نزلت سورة النمل وفيها: «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم»». [12]

الرسائل في العصر النبوي: لقد أصبحت الرسائل وسيلة مهمة لأداء حاجات الرسول (ص) السياسية والدينية، فاتخذها منهجاً قويماً واعتمدها أسلوباً صحيحاً لنشر مبادئ دعوته. فشرع يكتب الرسائل إلى العرب في الجزيرة وما جاورها يدعوهم إلى الإسلام كما راسل الملوك الأعاجم. وكانت الرسائل النبوية تعالج موضوعات تشريعية وتوجيهية، لها صلة بالدين الجديد، فشرع النبي (ص)يبعث الرسائل المختلفة يشرح فيها الأصول والأحكام والسنن، ويبين فيها حقوق المسلمين وواجباتهم، ويوضح فيها- تلك الرسائل- أصول الفرائض وأحكامها.

ـ موضوعات الرسائل النبوية:

يمكن تصنيف الرسائل النبوية حسب الموضوع الذي أنشئت الرسالة من أجله إلى الأصناف التالية.

رسائل الدعوة إلى الإسلام، رسائل تشريعية توجيهية توضح الفرائض والأحكام، رسائل النبي إلى بعض أصحابه في أمور شخصية وإلى غيرهم في أمور مختلفة.

أ- رسائل الدعوة إلى الإسلام:

ظهر هذا الضرب من المراسلات النبوية بعد أن قويت أركان الإسلام وخاصة بعد هدنة الحديبية، فاتجه الرسول إلى تثبيت الدولة الإسلامية وبنائها، فيدعو العرب وغيرهم للدخول في الإسلام. ويمكن تقسيم هذا الضرب من الرسائل النبوية إلى صنفين: 1- رسائل موجهة إلى رؤساء القبائل العربية 2- رسائل موجهة إلى الملوك الاعاجم.

ب– رسائل تشريعية دينية:

هذه الرسائل لون آخر مما أملاه الرسول على كتابه وأرسله إلى معتنقي الإسلام ليوضح لهم سنن الدين الجديد وأحكامه ويشرع عبرها أصول الصلاة وأحكام الزكاة ويحدد مقادير الجزية لأهل الكتاب ويبين فيها كثيراً من الأحكام والأصول، والفروع.

جـ– الرسائل النبوية الخاصة:

وهذا لون آخر من الرسائل النبوية اتسمت بطابع خاص ميزها عن مكاتباته الأخرى. وقد تناولت هذه الرسائل موضوعات شتى وعرضت لأمور كثيرة متباينة، مثل ما كتب إلى عماله وأمراء سراياه. وقد تفاوتت تلك الرسائل في مواضيعها وأغراضها. وكان غرض تلك الرسائل تفقيه العمال بأمور الدين وسياسة الرعية وجباية ما عليهم من صدقة أو جزية وغير ذلك.

خصائص رسائل النبي (صلى الله عليه وسلم)

تتميز الرسائل النبوية بلغتها المترسلة وميلها إلى الإيجاز والسهولة مع البعد عن الإطناب والمبالغة، إذ يعتمد على اللمحة والإشارة دون التفصيل والإسهاب، وكانت بعيدة عن التّكلف، خالية من عبارات التفخيم، ولها أوضاع خاصة قلما تعثر عليها في غيرها من الكتب، وتتابع في كثير من عباراتها بعطف أو غير عطف دون تكلّف للتعادل بينها.

ويشير «محمد كرد علي» إلى سبب ذلك حيث يقول في كتابه: " كان الرسول يتوخى إذا كتب لغير العرب أن يوجز القول ويقلل من اللفظ الذي لا يتفهمه كل إنسان حتى يسهل نقل كلامه إلى ألسن من كتب إليهم من غير العرب، كما كان إذا خاطب قبائل من قريش، أو كاتبهم يستعمل ألفاظا مألوفة لهم لا يعرفها القرشيون، ذلك لأن مقصده الإفهام، والبليغ من الكلام ما فهم وأبقى في النفس أثرا". [13]

الرسائل في العصر الراشدي:

في عهد الخلفاء الراشدين قد ظل أدب الرسائل غالباً امتدادا للمكاتبات النبوية، إذ بقيت الرسائل في هذا العصر متأثرة بتلك التيارات المختلفة منذ فترة مبكرة، إضافة إلى ما استجد من أحداث خطيرة

بعد وفاة الرسول (ص) وقد ظل صدى تلك المؤثرات واضحا في مكاتبات هذا العصر، ومميزا له عن سواه من ضروب الأدب الأخرى.

ومن ألوان الرسائل التي شاعت في هذا العصر بسبب كثرة الفتوحات الإسلامية، الرسائل الشخصية الإخوانية. وقد شاع هذا اللون من المراسلات لتدفق كبار الصحابه وغيرهم من الأجناد الذين ابتعدوا عن مركز الخلافة إلى تلك الأمصار المختلفة ارتباطا بالخليفة أو الحاكم.

والمعروف أن عمر كان أول من دوّن الديوان من العرب في الإسلام .فعلى أثر الفتوحات، وبعد أن كثرت الأموال التي ترد إلى الخلافة، أنشأ عمر بن الخطاب أربعة دواوين و هي: 1- ديوان الخراج و الجزية، أو ديوان الجباية الذي يهتم بستجيل الأموال الواردة إلى الخلافة وكيفية التصرف بها 2- ديوان الجند وهو الذي يهتم بتسجيل المحاربين و صرف نفقاتهم 3- ديوان العطاء أو ديوان المال و عمله الأساسي توزيع الاموال على الرعية. 4- ديوان الإنشاء أو ديوان الرسائل والذي يهتم بالمكاتبات وحفظ الوثائق الرسمية. [14]

تطور مدلول لفظ الديوان

الديوان لغة: الدفتر يُكتب فيه اسماء الجيش وأهل العطاء، وجمعه دواوين.

الديوان اصطلاحا:

اختلف الباحثون في أصل هذه اللفظة، فقد ذهب أكثرهم إلى أن لفظ «ديوان» غير عربي، وقد أكد ذلك الأصمعي فذكر أن الديوان لفظ عجمي كما أشار إلى ذلك الصولي، إذ يرى أن الديوان «اسم فارسي تكلمت به العرب فقالوا دِيوان (بكسر الدال) ولم يقولوا دَيوان كما قالوا دِيباج ولم يقولوا دَيباج.[15]

ولقد ذهب البعض إلى أن لفظ «ديوان» عربي، إذ يقال «دونته أي أثبتته» و إليه يميل كلام سيبويه وقد ذكر القلقشندي نقلا عن «النحاس» في صناعة الكتاب قوله، والمعروف في لغة العرب أن الديوان: الأصل الذي يرجع إليه ويُعمل بما فيه.

لقدأطلق لفظ «ديوان» أول الأمر على السجل الذي يثبت فيه أسماء الجند والمقاتلة حسب قبائلهم ومقدار أعطياتهم، وما ثبت فيه أيضا من أموال الفيء وغيره. ثم صار هذا اللفظ يطلق بعد ذلك على سجلات الحساب العامة، ويؤكد ذلك ما طبقت شهرته الآفاق من محاولة تعريب تلك الدواوين- أي السجلات- التي كانت تكتب باللغات الأجنبية، ونقلها إلى العربية في عهد عبد الملك. ولقد تطور

مدلول هذا اللفظ فصار يطلق حينا على الموضع الذي توضع فيه تلك السجلات وذكر الماوردي:«الديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال.» [16]

ديوان الإنشاء (الرسائل)، ذكر«القلقشندي» أنه اسم مركب من مضاف وهو ديوان، ومضاف إليه وهو الإنشاء، فإضافة الديوان للإنشاء تحتمل أمرين: أحدهما؛ إن الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تُنشأ وتُبتدأ منه. والثاني؛ إن الكاتب ينشيء لكل واقعة مقالا، وقد كان هذا الديوان في الزمن المتقدم يعبر عنه بـ (ديوان الرسائل)» تسمية له بأشهر الأنواع التي تصدر عنه، لأن الرسائل أكثر الأنواع الكتابية وأعمها وربما قيل «ديوان المكاتبات». ثم غلب عليه هذا الاسم واشتهر به، هذا الديوان أول ديوان وضع في الإسلام وذلك أن النبي (ص) كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة ويكاتبونه وكتب إلى من قرُب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وبعث إليهم رسله بكتبه، مثل رسائله التي كتبها إلى الملوك الأعاجم وهذه المكتوبات كلها متعلقة بديوان الإنشاء. [17]

الرسائل في عهد عمر وعثمان:

شهدت خلافة عمر بن الخطاب ازدهارا واسعا لفنون الرسائل، فكثرت مكاتباته إلى قادته وولاته وعماله وقضاته، ومنهم أبو موسى الأشعري، وأنس بن مالك. وكان عمر أول من قرّر التاريخ من الهجرة، لأن أبا موسى كتب إليه: إنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ- وكانت العرب تؤرخ بعام الفيل-فجمع عمر الناس للمشورة، فقال بعضهم:أرِّخ بمبعث النبي وقال بعضهم بمهاجره، فقال عمر: لا، بمهاجر رسول الله فإن مهاجره فرق بين الحق والباطل وكان ذلك في سنة سبع أوثماني عشرة من الهجرة. [18]ولقد أخذت الرسائل منذ عهد عثمان، تتلون بألوان جديدة، فقد طفق بعض الصحابه يتراسلون فيما بينهم في أمور سياسية مختلفة، لاسيما سياسة الخليفة وتغييره وتبديله كما ناقشوا سياسة عماله وولاته في الأمصار الإسلامية.

رسائل علي بن أبي طالب:

تعدّ رسائل الإمام علي (ك) من الوثائق المهمة من الناحية السياسية والاجتماعية والدينية إضافة إلى جمال أسلوبها البلاغي وقيمتها الأدبية العالية.

وكانت رسائله موجهة إلى أمراء بلاده وقواده وعمال دولته أو إلى مجتمعات أو أفراد، سواء كانوا موالين له أو مناهضين لحكمه، من كان لهم ارتباط وثيق بالأحداث السياسية التي طرأت على الساحة

الإسلامية من نزاعات وخلافات غيرت مجرى الحياة السابقة. كما ارتبطت رسائله بالشؤون الدينية والإدارية التي أصابها الانحلال والفساد، فانتخب لها الإمام في كتاباته للرسائل الموجزة، والمفصلة استجابة لمقتضيات الأحوال.

وكانت الرسائل تُكتب في الغالب بلغة مترسلة تختلف عن لغة الخطابة.لأنها في صدد تحديد وظائف تتطلب لغة واضحة الدلالة، صادقة اللهجة خالية من التراكيب الصورية.

فأصبحت الرسائل في أواخر العصر الراشدي وثائق تاريخية سياسية لها أهميتها البالغة في تصوير تلك الأحداث والكشف من أدقّ الأمور التي ألمت بالمجتمع الإسلامي ورسم ملامحه المختلفة. فكانت الرسائل الوسيلة المهمة التي لجأت إليها كل الأطراف السياسية المتخاصمة للتعبير عن نوازعهم ودعم حججهم وإبطال مزاعم خصومهم والكشف عن مساوئهم .

الهوامش:

1 ـ ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف، مصر، ط5 ، 1989.ص107

2 ـ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام.، جامعة بغداد، العراق، ط 2ج8، ص260

3 ـ المرجع نفسه.

4 ـ شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي. ص 19

5 ـ ابن النديم، محمد بن أبي إسحاق، الفهرست. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4 سنة 1980 ص8

6 ـ ابن وهب الكاتب،أبو الحسين إسحاق بن ابراهيم، البرهان في وجوه البيان.ص192

7 ـ المرزوقي، أبوعلي أحمد بن محمد بن الحسن، شرح ديوان الحماسة.ج1.ص18

8 ـ طه حسين، في الأدب الجاهلي. ص331، وكتابه من تاريخ الأدب العربي الجزء الأول.ص83

9 ـ زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع.ص42

10 ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ.ج1.ص520

11 ـ الجهشياري، الوزراء والكتاب.دار المعارف، ط 3 ، ص15

12 ـ المرجع نفسه، ص16

13 ـ محمد كرد علي، امراء البيان. دار الجيل ، بيروت، ط2، 1978 ،ص12

14 ـ سليم الحسنية، أضواء على صناعة الكتابة الدواوينية. منشورات وزارة الثقافة ، سورية، 1997ص26

15 ـ انظر أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشي، ج1، ص 89.أبوبكر محمدبن يحيى الصولي، أدب الكاتب، ص187

16 ـ الماوردي، أبوالحسن علي بن محمد، الأحكام السلطانية. ص 199

17 ـ القلقشندي، صبح الأعشي.ج 1.ص91

18 ـ الجهشياري، أبوعبد الله محمد بن عبدوس، الوزراء والكتاب، ص 19

فن الترسل في العصر الأموي

لاشك أن أدب الرسائل قديم جدا وله صفحات مضيئة في تاريخ الأدب العربي وقد أُلِّفَتْ فيه كتب ودواوين كثيرة ونهج كل أديب منهجا يختص به. والرسائل فن أدبي ازدهر وانتشر في القرنين الثالث والرابع الهجريين خاصة عندما بلغت الحضارة العربية الإسلامية قمة العطاء في مختلف الميادين والمجالات. وهو فن نثري يُظْهِرُ مقدرة الكاتب وموهبته الكتابية وروعة أساليبه البيانية المنمقة القوية. ولم تكن الكتابة شائعة بين العرب في الجاهلية، ولهذا السبب لم يكن للرسائل دور في حياتهم الأدبية في ذلك العصر لقلة الدواعي إليها .

1 ـ فن الترسل في العصر الأموي:

عندما آل الحكم إلى بني أمية وأراد معاوية بن أبي سفيان أن يطور شؤون الدولة الإسلامية؛ أنشأ ديوان الرسائل، هذا الديوان يعنى بشؤون المكاتبات التي تصدر عن الخليفة إلى ولاته وأمرائه وقادة جنده وملوك الدول الأخرى. وقد كان الخليفة ـ في بداية الأمر ـ هو الذي يُملي الرسائل على كاتبه، ثم بمرور الزمن أخذ الكاتب يستقل بكتابة الرسائل، ثم يعرضها على الخليفة وكان أسلوب الرسائل آنذاك تغْلبُ عليه البساطة والوضوح، ويخلو من التأنق والتصنّع كما حدث ذلك لاحقا وشهد فنُّ الكتابة نقلة ً كبيرة في عهد هشام بن عبد الملك عندما تولى مولاه سالم رئاسة ديوان الرسائل في عهده، ثم في عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، الذي تولى أمر ديوانه عبد الحميد بن يحي الكاتب .فقد عُرِف عبد الحميد بالبراعة في فن الترسل حتى غدت مكاتباته مضرب المثل في الجودة والإتقان، حتى قيل:"بدئت الكتابة بعبد الحميد ".وقال عنه جرجي زيدان في "تاريخ آداب اللغة العربية"(فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد ومن رسائل عبد الحميد المشهورة رسالته التي كتبها عن مروان إلى ابنه وولي عهده عبد الله حين وجهه إلى محاربة الضحاك بن قيس الشيباني الذي ثار في العراق، ورسالته التي وجهها إلى عمال مروان بن محمد بالأمصار يأمرهم بمحاربة لعبة الشطرنج، ورسالته التي وجهها إلى الكُتَّاب وأصبحت دستورًا لمهنة الكتابة. وعندما قامت الدولة العباسية أخذ خلفاؤها هم الآخرون يولون كتابة الرسائل عناية أكثر من سابقيهم، ولهذا السبب كثر الكُتَّاب، ونبغ كثير منهم في فن الترسل، وازداد التنافس بينهم ولا غرابة في هذا، لأن العمل في ديوان الرسائل أصبح مصدر رزق لهم، وغدا التفوق في فن الترسل وسيلة للحصول

على ولاية أحد الأقاليم، بل إنه غدا مؤهّلاً للوصول إلى منصب الوزارة، ونستحضر في هذا المجال أسماء: يحيى بن خالد البرمكي، وابنه جعفر، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وأحمد بن يوسف الكاتب، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وعبد العزيز بن يوسف، وضياء الدين بن الأثير وغيرهم ممن أوصلتهم هذه الصنعة وهذا الفن إلى ما كانوا يطمحون إليه من نيل لأعلى المناصب فقد كان لا يصل إلى تولي ديوان الرسائل إلا من حسنت سيرته وذاعت شهرته و كان فارس بلاغة وصاحب إتقان و جودة في تدبيج و تطريز الرسائل. وقد بلغ فنُّ كتابة الرسائل أَوْجَهُ في القرنين الثالث والرابع الهجريين، بحيث يمكن لنا أن نصف هذين القرنين بأنهما يمثلان الفترة الذهبية لهذا الفن.

وتنقل لنا الكتب أن« أول من وضع البريد، معاوية بن أبي سفيان ولم يكن البريد، عندئذ مثل ما نعرفه الآن في نقل الرسائل، وإنما كان مقصوراً على نقل ما يهم الدولة ورجالها، كما كان صاحب البريد في كل كورة، بمثابة عين للخليفة يكتب إليه بكل ما يقع عليه بصره، أو يصل إلى أذنه من أخبار.»[1]

وقد احتلت الرسائل في كل عصر حيزاً من اهتمام الأدباء والموظفين والأصدقاء والأحباء، ومن العادة أن تقسم الرسائل إلى رسمية (ديوانية) وإخوانية. » [2]

1. أنواعه :

أ. الترسل الديواني: تسمى الرسائل التي تصدر عن ديوان الرسائل، الرسائل الديوانية نسبة إليه. وفي هذا يقول عبد العزيز عتيق[3] عن الرسالة الديوانية: «وهي الصادرة عن ديوان الخليفة، والأمير يوجهها إلى ولاته وعماله وقادة جيوشه، بل إلى أعدائه أحيانًا منذرًا متوعدًا، كما ينبئنا الشريف الرضي في وصف رسائل أبي إسحاق الصابي: وصحائف فيها الأراقم كُمّن مرهوبة الإصدار والإيراد حُمْر على نظر العدو كأنما بدمٍ يخطُّ بهنَّ لا بمداد وتتنوع هذه الرسائل، فهي تشمل: الرسائل التي تصدر مشتملة على تولية العهد، وتولية القضاة، والولاة، وما يتصل بأمور الرعية. كما أنها تشمل أيضا الرسائل التي تكتب عن الخليفة أو الملك أو الوزير إلى من هو مثله من أجل التهنئة أو البشارة أو المعاتبة أو التعزية وما أشبه ذلك.

ومن أنواع الرسائل الديوانية أيضا. «رسائل الجهاد التي يوجهها الخلفاء إلى قوادهم يكلفونهم فيها بالغزو ويزينون إليهم الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، واعتمدت هذه الرسائل على المعاني الدينية، فكان الكاتب يضمنها الآيات التي تتحدث عن تكاليف الجهاد باعتباره فريضة شرعها الله لحماية دينه وإعلاء شأنه، كما كانت تتحدث عما ينتظر المجاهدين من ثواب و نعيم في الدارين» [4]

ـ موضوعاته: تطرقت الرسائل الديوانية إلى موضوعات عديدة ومتنوعة، فكان منها ما ذكرنا آنفًا أي رسائل الجهاد، وكان منها أيضا التي ذكرت الفتن والاضطرابات الداخلية التي شهدتها الدولة الإسلامية بعد التشتت والتمزق الذي أصابها،«كما كانت مبايعة الخلفاء من الموضوعات التي تناولتها الرسائل الديوانية، وقد مالت كتب المبايعات إلى الإطناب والتطويل، وكان الكاتب يستهلها بالتحميد، وكثيرًا ما يُطيل في تحميده حتى ليشبه خطبة دينية قائمة بذاتها» [6]

ويتصل بهذا اللون من الرسائل ما كتبه كتاب الدواوين« في التهاني بما تحقق من فتوحات وظفر على أعداء المسلمين، وكان استهلال رسائل التهنئة بالفتوحات سنة متبعة بين الكتاب حتى لتكاد تقترب في هذه السمة من الخطابة الدينية التي تجري على هذه الطريقة من استخدام التحميدات والإكثار منها. وتضمنت الرسائل الديوانية أوامر الخلفاء بتولية من يختارونهم من الولاة أو عزلهم، وكانت هذه الرسائل أشبه بمنشورات يوجهها الكاتب باسم الخليفة إلى عماله في الأصقاع المختلفة، ويتصل بالرسائل الديوانية ما كان يكتبه الكتاب إلى الولاة بتوجيهات من خلفائهم يذكرونهم فيه بمسؤوليتهم في المحافظة على الأمن ومتابعة شؤون وأحوال الرعية والعمل على استقرار الأمور.»[6]

ـ خصائصه: عمل النقاد والأدباء القدامى على ضبط القواعد التي ينبغي للكتاب أن يسيروا عليها في كتابة رسائلهم، وتعتبر رسالة عبد الحميد إلى الكتاب الدستور الذي سنَّ هذه القواعد وأصبحت بذلك محترمة ومتبعة وقد. وضع عبد الحميد القواعد الفنية التي سار عليها كتاب الرسائل الديوانية بعده؛ وقد ظلت طريقته تُحْتذى لدى كثير من كتاب الدواوين في القرن الثالث للهجرة، وكان من هذه القواعد« التزام الكاتب في صدر رسالته بالتحميدات خاصة في موضوعات معينة كالتولية أو رسائل الجهاد، وقد طالت هذه التحميدات في بعض الرسائل حتى صارت أشبه بخطبة دينية مستقلة مما جعل بعض القدماء يجتزئون بالتحميدات عن مضمون الرسائل»[7]كما تضمنت الرسائل الديوانية آيات قرآنية لتدعيم آراء و حجج الكتاب، واتجه بعضهم إلى تضمين أبيات الشعر، وبذلك صارت الرسالة الديوانية معرضًا لإظهار ثقافة الكاتب ومعارفه في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية .

ب ـ الترسل الإخواني: وفي مقابل الترسل الديواني، يوجد نوع آخر من الترسل يعرف بالترسل الإخواني، وهو« الذي يكتبه الناس بعضهم إلى بعض في موضوعات إخوانية، كالتهنئة، والتعزية والبشارة والعتاب، وغير ذلك من أمور الحياة يعبّر بها كاتبها عن الشوق والحنين للأهل و الأصحاب. يقول

القلقشندي عن هذا النوع من الترسل: الإخوانيات جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان ، والمراد المكاتبة الدائرة بين الأصدقاء . » [8] وقد عدد القلقشندي أنواع الرسائل الإخوانية حتى أوصلها إلى سبعة عشر نوعًا هي: «التهاني، والتعازي، والتهادي، والشفاعات، والتشوق، والاستزارة، واختطاب المودة، وخطبة النساء، والاستعطاف، والاعتذار، الشكوى، واستماحة الحوائج، والشكر والعتاب، والسؤال عن حال المريض، والأخبار،و المداعبة. » [9] ولا نجد في طيات الكتب التي تحدثت عن هذا النوع من الرسائل أية إشارة إلى ما كتب في العصر الجاهلي، ولعل السبب يعود إلى قلة الكتاب في ذلك الزمن أو إلى عدم اهتمام الرواة بما كتب لانشغالهم بالشعر الذي روي منه شيء كثير وإلى ثقافة المشافهة التي كانت سائدة آنذاك. وأما في صدر الإسلام« فإن ما وصلنا منه رسالة إخوانية واحدة للنبي . صلى الله عليه وسلم . يعزي فيها معاذ بن جبل . رضي الله عنه . في ابن له مات، وقد ضاع أكثر رسائل العهد الأموي من هذا النوع وما بقي منها فهو في النصح والإرشاد والعتاب والتعزية والاعتذار والشفاعة والرجاء وتبادل الآراء. ومن هذه الرسائل رسالة محمد بن الحنفية إلى أخيه الحسين حين افترقا متخاصمين وأراد محمد مصالحته. » [10]

والرسائل الإخوانية ينشئها الكتاب فقد«... كانوا يتراسلون فيما بينهم متخذين من الرسائل وسيلة للتعبير عن مشاعرهم وانفعالاتهم وما تتعرض له أحوالهم النفسية من نوازع متضاربة؛ فصوروا فيها ما يعتورهم من شوق وفرح وما يتعرضون له من أحزان وأتراح؛ وما يداخلهم من رضا وغضب، واتسعت موضوعات الرسائل الإخوانية فأصبحت تعكس عواطف الكتاب في الصداقة والشوق والبشارة والفراق، والاستعطاف والاعتذار وغير ذلك، وتنافس الكتاب في إظهار براعتهم في هذا اللون من الرسائل، فوفروا لها عناصر المتعة الفنية من تصوير وصياغة وموسيقى؛ فجمعت بين المتعة الوجدانية، والمتعة الفنية، وأحدثت بذلك تأثيرا قويا في نفوس الناس مما جعل بعض الشعراء ينجذبون إليها ويتخذونها وسيلة لتصوير عواطفهم بعد أن أصبح كثير من الناس يفضلون المنثور على المنظوم.»[11]

ـ موضوعاته: تدور أغلب موضوعات الترسل الإخواني حول الجانب الإنساني وما يرتبط به من صداقة وأخوة، وعواطف نبيلة، وما يتصل بالصداقة كما عبرت عما كان بين بعض الأصدقاء من تبادل للهدايا على اختلافها، لكن يبقى موضوع الصداقة من أبرز الموضوعات التي اجتذبت الكتاب، فعبروا في رسائلهم عن هذه العاطفة الإنسانية النبيلة، وأشادوا بروابط الإخاء والمودة التي تنعقد بينهم، ومن الجوانب التي طرقها الترسل الإخواني الاجتماعية: اتسعت الرسالة الإخوانية للموضوعات المتصلة بالصداقة«

كالرغبة في التلاقي للمسامرة أو المنادمة أو الإئتناس، وعبرت كذلك عن بعض العادات الاجتماعية التي شاعت بين الكتاب آنذاك كتبادل الهدايا من كتب وزهور وخيول وسيوف وغيرها. واتخذ الكتاب الرسالة الإخوانية أداة لتوجيه الشكر إلى إخوانهم لمعروف أسدوه إليهم أو خير اختصوهم به أو معروف أحاطوهم به.» [11] ولم تقتصر الرسالة الإخوانية على ما سلف ذكره من موضوعات بل امتدت إلى موضوعات أخرى لتشارك الشعر وفنون أخرى في ما طرقت من موضوعات وأغراض فـ«...تناولت موضوع(الاعتذار) باعتباره يمثل صورة من صور العلاقة المتبادلة بين الكتاب؛ فكان الكاتب يعتذر عن تلبية دعوة أو المشاركة في إحدى المناسبات ذاكرًا له الأسباب التي حالت دون تلبية دعوته، وطوع الكتاب الرسالة الإخوانية لموضوعات أخرى كالوصايا والتشفع فكان الكاتب يوجه رسالة إلى بعض إخوانه يسألهم فيها إنجاز أمر يتعلق به أو بأحد معارفه وأصحابه، وكانت هذه الرسائل أشبه ببطاقات التوصية وفيها يعمد الكاتب إلى الإيجاز وعرض مسألته في عبارات قصيرة. وكانت التهاني من الموضوعات التي شغلت مساحة من الرسائل الإخوانية لتعكس بذلك عادة اجتماعية وثيقة الصلة بالمجتمعات المتحضرة؛ فكثرت التهاني بالولاية وغيرها من المناسبات الاجتماعية السارة كالزواج والإنجاب والعودة من السفر والإبلال من المرض، وعكست هذه الرسائل عمق العواطف المتبادلة بين الكتاب، كما أظهرت براعة بعض الكتاب في التعبير عن معانيهم، وقد عمد الكتاب في تهانيهم إلى الإيجاز لتصبح رسائلهم أقرب إلى بطاقات التهنئة المتداولة في وقتنا الحاضر».[12]

وجدير بالذكر أن الرسائل الإخوانية لم يشترط النقاد في صوغها وبنائها شروطًا دقيقة ملزمة، وإنما أطلقوا فيها العنان للكتاب للتعبير عن خواطرهم ومشاعرهم من غير قيد، لأنه ليس بين الإخوان ما يدعو إلى التكلف في الخطاب، مما جعل النقاد يفشلون في وضع قواعد وضوابط ملزمة لكتاب الرسائل الإخوانية، كما يبينه أحمد بدوي «وقد حاول النقاد أن يضعوا معالم يهتدي بها الكتاب في كل ضرب من ضروب الرسائل الإخوانية، ولكنهم في كثير من الأحيان يعترفون بالعجز عن وضع هذه المعالم بدقة»[13] وهذا ما جعل الترسل الإخواني أكثر أدبية وأكثر جمالاً من الترسل الديواني وجعل رسائله «أدخل في الأدب، وأقْبَلُ للتخييل والصور البيانية، والصنعة البديعية، تحتمل الاقتباس من المنثور والمنظوم، وتنافس الشعر في جل أغراضه»[14]

ج ـ الرسائل الوعظية: وهناك رسائل أخرى ليست ديوانية ولا إخوانية وإنما هي رسائل وعْظية، ونعني بها تلك التي يكتبها بعض الأتقياء إلى الخلفاء والسلاطين والأمراء يحثونهم على الصلاح والتقوى والرأفة بالرعية، والاستعداد للموت، وما أشبه ذلك.

د ـ الرسائل التعليمية: بالإضافة إلى الأنواع المذكورة سابقاً، هناك نوع آخر من الرسائل خُصِّص للحديث عن بعض الموضوعات الأدبية أو العلمية أو الدينية أو التاريخية، وهذا النوع من الرسائل يدخل في باب التأليف ولا يدخل في باب الترسل، ومن أمثلته الرسالة القشيرية في التصوف وبعض رسائل أبي العلاء المعرِّي، مثل رسالة الغفران التي ألفها في عزلته رداً على رسالة وجهها إليه ابن القارح. ورسالة الصاهل والشاحج ورسالة الملائكة. وقد عُرف هذا اللون بالرسائل الأدبية، وكان الجاحظ أمير بيانه من غير منَازع. « وتُعَدُّ رسالته التربيع والتدوير التي كتبها في هجاء أحمد بن عبد الوهاب أشهر الرسائل الأدبية؛ إذ فتحت الباب لمن جاء بعده من الكتاب للإبداع في هذا اللون من الترسل في المشرق والمغرب والأندلس على السّواء. وهذا النوع من الرسائل أشبه ما يكون بالمقالات في العصر الحديث، و فيها يتناول الكاتب موضوعًا خاصًا أو عامًا تناولاً أدبيًا، مبنيا على إثارة عواطف القارئ ومشاعره، وهي لا توجه إلى شخص بذاته، وإنما يكتبها الكاتب ليقرأها الناس جميعًا. » [15]

ـ خصائصه البنائية: بعد عرض أنواع الترسل، نتوجه بالحديث عن الخصائص البنائية لهذه الرسائل وما يشتمل عليه كل جزء من أجزاء الرسالة؛ من المقدمات إلى المضمون إلى الخاتمة وما ينبغي أن تشتمل عليه تلك الأجزاء.

أ . بنية المقدمات: عرف البناء الهيكلي للرسالة تطورات مختلفة خلال مسيرته في تاريخ الأدب العربي، منذ رسالة عبد الحميد إلى الكتاب إلى موسوعة أبي العباس القلقشندي مرورًا بغيرهما من المؤلفات التي نظَّرت لهذا اللون الأدبي، وعن هذا الاختلاف يقول الكلاعي:« ونظرت . أعزك الله . في صور الرسائل واستفتاحاتها فوجدتها أيضًا تختلف»[16] ومقدمات الرسائل . ديوانية كانت أو وإخوانية . تشتمل عادة بعد البسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على المرسِل والمرسَل إليه، وتتضمن الدعاء، إضافة إلى التحية التي تذكر قبل البعدية وقبل الختام .

وتختلف استفتاحات الرسائل، ويختار الاستفتاح المناسب لمنزلة المرسل إليه فقد يذكر مقدمًا عن المرسِل بصيغة: لفلان من فلان. وقد يؤخر ذكره فيكتب: من فلان لفلان، وتكون في حالات أخرى

بإيراد كنية المرسل إليه أو رتبته، غير أن كل الاستفتاحات كان يراعى فيها الجودة والحسن والبراعة لأنها تقع في البداية وهي أول ما يطرق السمع من الكلام، فيكون داعية للانشراح وإثارة انتباه المتلقي، وقد كان يُلْجَأُ إلى المنظوم فتُبدأُ الرسالة بأبيات شعرية لكاتبها أو لغيره تدل على المضمون العام لها وتختصره في كلماتها، وكثيرًا ما يلجأ الكتاب إلى الإشارة إلى غرض الرسالة في مطالعها ومقدماتها كعملية ربط وحسن تخلص.

ب . بنية المضامين: ينتقل كتاب الرسائل إلى المراد من رسائلهم وبحسن تخلص لِطَرْقِ الموضوع الذي يريدون معالجته في رسائلهم، وغالبًا يقع حسن التخلص بصيغة: أما بعد وهي وقفة بين الابتداء والشروع في الموضوع المراد ذكره في الرسالة، وقد تنوعت المضامين في الرسائل بنوعيها . الإخواني والديواني . ومست مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية، فكان كتاب الدواوين يكتبون بتولية القادة والقضاة والأمراء، ويكتبون بمناسبة نصر جيوش المسلمين والتهنئة بذلك. وفي الإخوانية يتبادل الأصدقاء الرسائل ويتطرقون فيها إلى الشوق والاعتذار والتهنئة بالزواج والمولود الجديد والتعزية والشكر والدعوة إلى حضور مناسبة من المناسبات وغيرها من الموضوعات. خاتمة الرسالة هي آخر شيء فيها وتكون في الغالب بلفظ "السلام"أو "السلام ورحمة الله تعالى وبركاته" وتكون مسبوقةً بالدعاء، كما تشتمل كثيرٌ من الرسائل على التأريخ باليوم والشهر والسنة كعلامة على انتهاء الرسالة وإن كانت بعض الرسائل تؤرخ في البداية، ويتم التأريخ بما مضى من الشهر باعتباره معلومًا، ويشترط في الاختتام ما يشترط في الابتداء من جودة وحسن لأنه آخر ما يتبقى في الأسماع

على أن هذه العناصر البانية للهيكل العام للرسائل غير ثابتة ومستقرة، فقد يخرج الكتاب عنها في بعض الحالات .

ـ عبد الحميد الكاتب: (نبذة عن حياته، وأسلوبه في الكتابة)

عبد الحميد الكاتب، هو عبد الحميد الكاتب بن يحيى الكاتب أشهر كتّاب العصر الأموي. بدأ حياته معلماً بالكوفة ثم انتقل إلى الشام واتصل بالأمويين ومنهم مروان بن محمد الذي جعله كاتبه، ولازمه حتى انتهت دولتهم سنة 132هـ فهرب مروان ومعه عبد الحميد إلى مصر وقتلا فيها.

ـ أول من وضع الأصول الفنية في النثر الفي :

عبد الحميد الكاتب شخصية غريبة في تاريخ التراث الأدبي عند العرب، وحياته غامضة أشد الغموض، لأن الخلافة العباسية أسدلت عليه سحبا كثيفة من الإهمال والنسيان باعتباره الكاتب السياسي الأول لدولة بني أمية، و لقبه الجاحظ في كتابه المشهور – البيان والتبيين – بعبد الحميد الكاتب أو الأكبر ويعظم النقاد العرب من منزلته في الأدب العربي، فيقولون فيه بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد.

و كان أبوه يسمى يحي من سلالة غير عربية، من أهل الشام الذين دخلوا في الإسلام و تعلموا العربية. ولا يعرف متى ولا أين ولد، وإن كان من المرجح أنه ولد في خلافة الوليد بن عبد الملك (76-96 هـ : 705-715 م)، في دمشق أو قريبا منها. وكانت الدولة آنذاك للأمويين وعاصمتهم السياسية مدينة دمشق التي بنوا فيها المساجد والمدارس والقصور، وأنشأوا فيها الحدائق والدواوين والحصون والقلاع، وأصابها من عناية الأمويين ما صارت به قبلة الناس من كل صوب وحدب، فاتسع عمرانها وصبغت بصبغة حضارية واضحة المعالم، و صارت موطنا رفيعا من مواطن الثقافة والأدب في العالم الإسلامي.

تعلم عبد الحميد الكاتب اللغة العربية وبلاغة العرب وتفوق فيهما، فسلس لسانه، وجادت لغته، وظهرت مواهبه في الأدب والبلاغة والبيان والخطابة والكتابة، وعمل في أول أمره معلما، وتنقل في البلدان، وكانت ثقافة الأدب في أيامه مزيجا من الثقافة العربية الإسلامية، ومن التاريخ والأنساب والقصص والسير ومعرفة أيام العرب وتاريخ العجم، وأحيانا يضاف إلى ذلك ثقافة أجنبية كالثقافة الفارسية أو الإغريقية أو الرومانية أو المصرية القديمة أو الهندية، وفي رسالة عبد الحميد إلى الكتاب ما يوضح لنا أصول الثقافة الأدبية قي عصره.

و قد تتلمذ عبد الحميد في الكتابة على أبي العلاء سالم الكاتب السياسي لهشام بن عبد الملك (105-125 هـ - 724:743م)، ويروي ابن النديم في « الفهرست » أن أبا العلاء نقل إلى العربية رسائل أرسطو إلى الإسكندر وذلك يدل على تضلعه في الثقافة والأدب واللغة اليونانية، وكان أبو العلاء من الواضعين لنظام الرسائل الأدبية ولتقاليد الكتابة الفنية، وله رسائل كثيرة كما يذكر ابن النديم، وكان صهرا لعبد الحميد، إذ كان زوج أخته. وكان جبلة بن سالم يتولى الكتابة السياسية في ديوان الرسائل لهشام أيضا وصديقا حميما لعبد الحميد الكاتب، وكان جبلة يعرف الفارسية، وهو أحد المترجمين منها إلى العربية، كما كان صديقا حميما لعبد الحميد ابن المقفع (106-142 هـ : 715-760 م) وابن المقفع فارسي

الأصل وأحد المترجمين من اللغة الفارسية إلى اللسان العربي كذلك، و ذلك كله يدعنا نرجح أن عبد الحميد إلى جانب ثقافته العربية كان يعرف اليونانية و الفارسية.[17]

و ذاعت شهرة عبد الحميد الكاتب وعرفت مواهبه الأدبية وثقافته الكثيرة، فقربه إليه الأمير الأموي مروان بن محمد حاكم إقليم الجزيرة وأرمينية، هذا الإقليم الغني الممتد الأطراف الذي كان يشمل بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمنية، وكان مروان قد تولى الإمارة على الإقليم بعد وفاة والده محمد مروان الأموي. ولم يلبث الأمير مروان أن قاد جيشا كثيفا من أبناء الجزيرة وأرمينية وزحف على الشام فاستولى على أكثر مدنه ثم زحف على دمشق و دخلها و تولى أمور الخلافة الأموية عام (126 هـ، 744 م)

كان عبد الحميد يتولى شؤون ديوان الرسائل للأمير مروان بن محمد أثناء ولايته للجزيرة وأرمينية، وصار وثيق الصلة به وازدادت مكانته عنده ومنحه الأمير ثقته الكبيرة، ولما تولى مروان الخلافة عيّن عبد الحميد رئيسا لديوان الرسائل في دمشق والكاتب الأول للخليفة الجديد وصدرت عنه رسائل أدبية وسياسية نالت شهرة فنية كبيرة.

مقتله:.بعد معركة الزاب وهزيمة مروان، و معه عبد الحميد بن يحيى الكاتب، كتب هذا العبقري العظيم إلى أسرته رسالة مؤثرة ، كلها بكاء و دموع وحيرة ولا يرى فيها عبد الحميد من خلال الأحداث إلاّ القتل أو الأسر، وهو يودع أسرته فيها وداعا مؤثرا.

ألح مروان على صديقه عبد الحميد أن يهرب فقد ينجو من القتل، أو أن ينضم إلى أعدائه من العباسيين. فقد يستطيع أن يقدم خدمة للخليفة المهزوم، وقال له مروان: إن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن فيك، فاستأمن إليهم وأظهر الغذر بي، فبذلك تنفعني في حياتي أو بعد مماتي قال عبد الحيمد: إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي، و لكني سأصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك. و لما ضاق بهما الأمر دعاه مروان إلى الهرب وأصرّ مروان على رأيه، فاختفى عبد الحميد هاربا واختفى عنه صديقه ابن المقفع .كان صديقه عبد الله بن المقفع في العراق يكتب لداود بن هبيرة حاكم العراق من قبل مروان، و كان ابن المقفع يزور دمشق، وعبد الحميد الكاتب أحيانا إذا سار إلى عاصمة الأمويين مع أميره العظيم .. ولما اكتسحت جيوش العباسيين العراق قتلوا داود وأهله فيمن قتلوهم ونجا ابن المقفع في البحرين، ولجأ إليه هناك صديقه عبد الحميد الكاتب وأقام عنده في داره ولكن عيون العباسيين عرفت مكانه ففاجأه الطلب وهو في دار ابن المقفع، وهنا تظهر عظمة الرجلين المفكرين الكبيرين الذين ظلا على الأجيال حتى

اليوم فخرا للفكر العربي، قال الجند وهم شاكو السلاح : أيكما عبد الحميد ؟ فقال : أنا كل منهما : إشفاقا على صديقه، وأوشك الجند أن يفتكوا بابن المقفع، لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلا : ترفقوا بنا فإن لك منا علامات فوكلوا بنا بعضكم وليمض البعض الآخر إلى من وجهكم ليذكر له تلك العلامات، فلم يجد الجند مناصا من ذلك، و فعلوا وعادوا بأوصاف عبد الحميد كاملة فقبضوا عليه وقتل عام 132 هـ : 750 م و هكذا خسر الفكر والأدب العربي أعظم رجاله وأروع شخصية يعتز بها تراثنا العقلي على مد العصور وكذلك كان حظ ابن المقفع فقد استمهله القدر عشرة أعوام قتل عام 142 هـ : 760 م في عهد الخليفة المنصور العباسي.

ـ قيمته الأدبية :

كان عبد الحميد عبقرية كبيرة وذهنا لماحا، وذكاء خصبا، وأدبا جما، ونبلا موفورا، وملكا في ثياب عربي، مع ثقافة واسعة، وعلم بسياسة الدولة وشتى أمورها، وأدرك لكل مسؤوليات الرجل السياسي وواجباته. ومع قدرة فائقة على تملك ناحية البيان وزمام التأثير، وروعة التعبير .. ، وكان عبد الحميد يقدر على تصور المعنى تصويرا بارعا لا يقدر عليه أحد من الكتاب ...

إن عبد الحميد كان جديرا أن يعد في عصره وبعد عصره شيخ الكتاب وإمام المنشئين والمترسلين في الأدب العربي، فقد كان أمة وحد في بلاغة العبارة ورصانة الأسلوب ودقة المعاني ولطفها وعظمة الخيال وروعته وشدة التأثير وامتلاك ناحية البيان، وكان يفصل جمله تفصيلا، ويزنها أحيانا بقليل من السجع ويحليها بألوان من الوشى الفتي المطبوع.

و يرى الدكتور طه حسين وبعض النقاد أن عبد الحميد هو الذي ظهر على يديه النثر الفني في الأدب العربي، وهو الذي أنشأ الكتابة الفنية إنشاء في اللغة العربية، وهو الذي ترك آثارا كبيرة في نهضة الكتابة وتحولها إلى صناعة فنية لها منهاجها وأصولها وتقاليدها الأدبية .

وقد ساعد عبد الحميد على إحداث هذا التأثير الأدبي الكبير الذي ظهر في صورة مذهب فني جديد في الكتابة ما يلي:

1. نضج الثقافة العربية الإسلامية من علوم الدين واللغة والأدب، وإقبال الكتاب عليها وتمثلهم لها و احتذاؤها حذوهم

2. رواية أصول الأدب العربي شعرا ونثرا وخطابة ووصاية وحكما وأمثالا وسجعا و قصصا وإخبارا وأنسابا، والعكوف على استظهارها كذلك، ومحاكتها وعلى استظهار الشعر الجاهلي والإسلامي كذلك، وخطب الرسول ووصاياه وخطب الخلفاء والصحابة وبلاغات البلغاء وحكمهم ومأثور كلامهم، حتى عصر عبد الحميد، وبخاصة خطب الإمام علي بن أبي طالب وحكمه.

3. أثر القرءان الكريم والحديث النبوي في تهذيب الألسنة وترقيق الطباع ووضوح الملكات.

4. اتصال العقل العربي بالآداب الأجنبية وتأثره بثقافات الفرس واليونان والرومان والهند وغيرهم.

5. العناية بكتابة الرسائل، وجعلها صناعة فنية عتيدة إلى جانب اتساع أعمال الدولة.، و ديوان الرسائل الذي كان يتزعمه كبار الأدباء و الكتاب ممن أنشأوا الرسائل البليغة على ألسنة الخلفاء والأمراء، وقد استطاع عبد الحميد أن يتصرف في نثره الفني تصرفا ذكيا يجمع بين طرفي الإيجاز والإطناب ويراعي شتى الأحوال والمقامات، وكان لقدرته على الإيجاز في موضعه والإطناب في موضعه يتخير لكل منهما محله الذي يناسبه فيطنب في الإخبار بالفتوح والحث على الجهاد وفي الوعد والوعيد ويوجز في أخبار الهزائم ووصف الأعداء .. كما أطال في فواتح رسائله الأدبية وخواتيمها بما يعد جديدا في هذا العصر، كالإتيان بكثير من التحميدات في أساليب متنوعة وصور مختلفة، و كالبدء ببسم الله ثم إتباعها الحمد لله، فاصلا بينهما بأما بعد، و غير ذلك. وبهذا عد عبد الحميد من أوائل من وضعوا الأصول والتقاليد الفنية في النثر الفني العربي وفحالته الأدبية. وقد أكثر عبد الحميد من الرسائل الإخوانية التي ينشئها الكتاب البلغاء فتحمل ما في قلوبهم من مودة وإخاء، وتصور ما تجيش به مشاعرهم من مختلف العواطف والنزعات، وتعبر عما يتردد في نفوسهم من آراء وأفكار في أسلوب رائق و لفظ جميل وتصوير مؤثر..

الهوامش:

1ـ القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، الموسوعة الشعرية المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، الإصدار الثالث،2003، ص301.

2ـ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج2، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1985م، ص196.

3ـ عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1391هـ، 1972م، ص223.

4 ـ فوزي سعد عيسى، الترسل في القرن الثالث الهجري، دار المعرفة الجامعية، 1991م، ص18.

5ـ نفسه ص24.

6المرجع نفسه، ص26، 27.

7نفسه، ص30.

8 ـ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، مرجع سابق،ج8، ص126.

9ـ ينظر المرجع نفسه،ج9، ص 5 وما يليها .

10 ـ عمر عروة، النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه، دار القصبة للنشر، دت، ص34.

11ـ فوزي سعد عيسى، الترسل في القرن الثالث الهجري، دار المعرفة الجامعية،1991م، ص35.

12 ـ المرجع نفسه، ص 35، 36 .

13ـ راجع المرجع نفسه.

14 ـ أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، مكتبة نهضة مصر،القاهرة،1964، ص32 .

15 محمد مسعود جبران، في فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، المجلد الثاني، دار المدار الإسلامي،ط1، 2004م،ص 149،150 .

16 ـ عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1391هـ. 1972م، ص123.

17 ـ راجع، زكى مبارك في كتابه (النثر الفني)، وأيضا طه حسين في كتابه(من حديث الشعر والنثر(

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولا:المصادر:

1. ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه، أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، د ت.

2ـ أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، البرهان في وجوه البيان: الكاتب، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، مكتبة الشباب القاهرة، الطبعة الأولى 1969

3. الحاتمي، من حلية المحاضرة، اختار النصوص وعلق عليها، مظهر الحجي، منشورات وزارة الثقافة، سورية 2000.

4.. . أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة دار التراث،القاهرة الجزء 2، 1995.

5 ـ أبو حيان التوحيدي، المقابسات ، تحقيق: حسن السندوبي ، دار سعاد الصباح ، ط2، القاهرة، 1996

6 ـ ابن خلدون، المقدمة، المكتبة العصرية صيدا . بيروت، 1425 هـ . 2005 م

7. ـ الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، تحقيق: ابراهيم الأبياري، ط 4، دار الكتاب العربي، بيروت، 1998 .

8 ـ أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت 1966.

9ـ المظّفر بن الفضل العلوي، نُضرة الإغريض في نُصرة القريض، تحقيق نهى عارف الحسن. ص359.

10ـ المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين، وعبد السلام هارون، خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 5 سنة 1980

11ـ ابن المقفع، آثار ابن المقفع (كليلة ودمنة، الأدب الصغير، الأدب الكبير)، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت

12 ـ ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، 2006

13 ـ أبوعبيد ابن سلام، كتاب الأمثال، تحقيق د قطامش، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د ت.

14 ـ أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق: إبراهيم وقطامش، دار الكتب العلمية، بيروت

15 ـ الميداني، مجمع الأمثال، دار الجيل ، بيروت 1987

16 ـ السيد أحمد الهاشميّ، جواهر الأدب ج 1 – المكتبة التجارية الكبرى، 2015

17ـ جمهرة وصايا العرب، وصايا العصر الجاهلي، تحقيق: محمد نايف الدليمي، دار النضال، بيروت، 1991

18 ـ ابن القيم، مدارج السالكين، بن القيم الجوزية، تحقيق، عماد عامر، دار الحديث، القاهرة،1993.

19 ـ أسجاع الكهان الجاهليين وأشعارهم، جمع وتحقيق ياسين عبدالله جمول، جامعة دمشق، 2012
20 ـ صديق القنوجي، أبجد العلوم : تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية . بيروت ط 1، 1987
21ـ ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة : تحقيق البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط 1 سنة 1412 هـ
22 ـ قاسم القونوي، أنيس الفقهاء، تحقيق الكبيسي، دار الوفاء . جدة، ط 1 سنة 1406
23 ـ ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت.
24 ـ ابن جرير الطبري، تاريخ الطبري، العلمية، بيروت، ط 1 سنة 1407هـ.
25 ـ محمد بن إسماعيل البخاري، التاريخ الكبير، إدارة المعارف العثمانية، الهند ط سنة 1361هـ
26 ـ ابن هشام، سيرة ابن هشام، تحقيق طه سعد، دار الجيل، بيروت ط سنة 1411 هـ.
27ـ النووي، شرح النووي على مسلم، دار بيت الأفكار الدولية، الأردن، دت

ثانيا ـ المراجع:

1 ـ أبلاغ محمد عبد الجليل، شعرية النص النثري، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 2002
2 ـ أحمد أمين، فجر الإسلام، دار الجيل ، بيروت 1987
3 ـ أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، مكتبة نهضة مصر،القاهرة،1964
4 ـ بطرس البستاني: أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار مارون عبود، د ت
5ـ توفيق الواعي: الخطابة وإعداد الخطيب، دار اليقين للنشر والتوزيع، 1999
6 ـ خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 5 سنة 1980
7 ـ راكان الصفدي، الفن القصصي في النثر العربي القديم حتى مطلع القرن الخامس الهجري، الهيئة العامة السورية للكتاب،2011،
8 ـ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، 1977
9 ـ شوقي ضيف، العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، 1980
10 ـ شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، 1968
11 ـ شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، 1972
12 ـ محمد توفيق أبو علي، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1988، ص 32
13 ـ عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، دار سعاد الصباح ص 138
14 ـ علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، دار الجيل ، بيروت، 1999
15 ـ عبد الجليل عبده شلبي، الخطابا وإعداد الخطيب، دار الشروق، القاهرة،ط1، 1981

16 ـ علي عبد الحليم محمود، القصة العربية في العصر الجاهلي، دار المعارف، (د ت) مصر، ص 112

17 ـ عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1391هـ، 1972م

18 ـ عمر عروة، النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه، دار القصبة للنشر، دت.

19 ـ فوزي سعد عيسى، الترسل في القرن الثالث الهجري، دار المعرفة الجامعية، 1991م

20 ـ محمد أبو زهرة، الخطابة تاريخها في أزهر عصورها، دار المعارف، 1989، القاهرة

21 ـ محمد مرتاض، قراءة جديدة للنثر العربي القديم من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي، ديوان المطبوعات الجامعية، 2012،

22 ـ محمد مسعود جبران، في فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، المجلد الثاني، دار المدار الإسلامي،ط1، 2004م

23 ـ نوري القيسي وآخرون، تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام، كلية الآداب، بغداد، العراق، ط2، 2000،

24 ـ عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1391هـ. 1972م، ص123.

25 ـ أسجاع الكهان الجاهليين وأشعارهم، جمع وتحقيق ياسين عبدالله جمول، جامعة دمشق، 2012

26 ـ ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف، مصر، ط5 ، 1989

ثالثا. ـ المعاجـم

1. ـ أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط1، 2001.

2. جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 2، 1984.

3. ـ المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (لاروس)1989.

4. الخليل بن أحمد الفراهدي، كتاب العين، دار ومكتبة الهلال ، مصر.

5 ـ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الحديث القاهرة، 1970

5 ـ ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت، د ت

6 ـ المعجم الوسيط-مجمع اللغة العربية بالقاهرة-صدر: 1379هـ/1960م

رابعا. المواقع الإلكترونية:

محمد بن إبراهيم الشيباني، الكهنة.، رابط المجلة https://alqabas.com/article/164117

الفهرس:

مقدمة .....1 ـ 2

المحاضرة الأولى: بين الشعر والنثر.....3 ـ 10

المحاصر الثانية: الأمثال والحكم في العصر الجاهلي.....11 ـ 18

المحاضرة الثالثة: سجع الكهان.....19 ـ 27

المحاضرة الرابعة: أدب الوصايا في النثر العربي القديم.....28 ـ 35

المحاضرة الخامسة: الخطابا في العصر الجاهلي..... 36 ـ 42

المحاضرة السادسة: أدبية الخبر والقص في النثر العربي القديم.....43 ـ 49

المحاضرة السابعة: الخطابة في صدر الإسلام .....50 ـ 55

المحاضرة الثامنة: الخطابة في العصر الأموي.....56 ـ 60

المحاضرة التاسعة: أدب السِّـــير والمغـــازي.....61 ـ 70

المحاضرة العاشرة: فن الترسل في العصر الجاهلي والإسلامي.....71 ـ 85

المحاضرة الحادية عشر: فن الترسل في العصر الأموي.....86 ـ 96

قائمة المصادر والمراجع .....97 ـ 100